الباب الثالث
لعبة الشيطان الثانية مع البشر

منذ بدأ الله الخلق، وهم على التوحيد، لأن الله عز وجل قد أخذ الميثاق على ذرية آدم: ألست بربكم: قالوا بلى، وظلوا على ذلك العهد والميثاق عدة قرون، ثم لعب الشيطان الرجيم لعبته الأولى مع الناس، ودخل على عقولهم من محبتهم للرجال الصالحين فيهم، وخاصة بعد ممات هؤلاء الصالحين، وأغرى الناس أن يصوروهم على هيئة أصنام وتماثيل من الحجارة، تخليدا لذكراهم وقربا لمحبتهم، ولكن بعد أجيال وأحفاد، عبد هؤلاء الأحفاد هذه الأصنام والأوثان، وهذه هى اللعبة الأولى للشيطان ونسى الناس العهد والميثاق الذى اتخذه الله من ظهر آدم.

أما اللعبة الثانية للشيطان الرجيم، دخل على بعض فئات البشر من باب المعاملات والحب والكره بين أفراد الأسر، وحب المال والتباهى به والجاه والسلطان والمرض وما يحدث للإنسان فيه، والابتلاءات التى فرضها الله على الناس ليعرف الصادق منهم والصابر على قضائه، وبشر الصابرين بالأجر والثواب ولهذا وذاك وفقنى ربى إلى تقسيم هذا الباب إلى عدة فصول هى:

الفصل الأول: قصة مدين قوم شعيب.
يوسف وأخوته.
أيوب ومرضه.

الفصل الثانى: قصة موسى مع فرعون مصر.
قارون عبيد المال.

الفصل الثالث: ابتلاءات أمة الإسلام – الخوف.
الفقر والجوع.

الفصل الرابع: المرض والأوجاع.
عذاب الدنيا عند الاحتضار.
دواهى الموت.
السفر قطعة من العذاب.

* * *

الفصل الأول
قصة مدين قوم شعيب

يقول الله تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

[الأعراف: ٨٥ - ٩٠].

كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم (مدين) القريبة من أرض (معان) من أطراف الشام، مما يلي الحجاز، قريبا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، وقبيلة مدين عرفت بهم وهم: من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

ونبي الله شعيب: قالوا إنه شعيب بن يشخر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

وقالوا: إنه شعيب بن نويت بن عيفا بن مدين بن إبراهيم الخليل.

وقالوا: إنه شعيب بن صيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم، والله أعلم.

وقيل: إن جدته، وقيل: إن أمه بنت لوط.

وقالوا: إن شعيبا آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار، وهاجر معه إلى الشام، فزوجه لوط ابنته.

وكان شعيب يسمى (خطيب الأنبياء) لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته فى دعوة قومه إلى الإيمان، وكان أهل مدين كفارا يقطعون الطريق، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة وهى شجرة من الأيك حولها عيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان، ويطففوا فيهما، فيأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص.

فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو شعيب عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وترك الأعمال القبيحة، من بخس الناس وتخويفهم، فآمن به بعضهم، وكفر أكثرهم، وذكّرهم شعيب بنعم الله عليهم، فلقد كانوا قلة فى العدد، وكثرهم الله وقال لهم:

(إن الله يبارك لكم فى الربح القليل، إن كان عن طريق الحلال فى المعاملات، أما سرقة أموال الناس فى الكيل والميزان، فهذا عمل يمحقه الله ويذيقكم بأسه وعذابه).

فلم يسمعوا كلامه ولم يستجيبوا لنصحه، فأنذرهم ورهبهم، فقال كما جاء فى سورة هود:

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود: ٨٩].

ثم مزج الترهيب بالترغيب، فقال:

﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود: ٩٠ - ٩٤].

العـــذاب:

فلمـا عـصوا وتمـادوا فى العناد أخذتهم رجفة من الله ، فرجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالا شديدا ، أزهقت أرواحهم من أجسادهم وصيرت حيوان أرضهم كجمادها وأصبحت جثثهم لا أرواح فيها ولا حواس لها .

يوم الظلة

ومن عذابهم أن الحق تبارك وتعالى يقول فى سورة الشعراء:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] .

قـال المفـسرون: (إن قوم مدين لما عصوا شعيبا ، أصابهم حر شديد من الله عز وجل ، فأسكن الله هبوب الرياح عنهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ، ولا ظل ، ولا دخولهم فى الأسراب ، فهربوا من محلتهم إلى البرية ، فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها .

فلمـا تكاملـوا فـيها ، أرسـلها الله تـرميهم بـشرر وشـهب ، ورجفـت بهـم الأرض وجـاءتهم الـصيحة مـن الـسماء فأزهقـت الأرواح ، ولما ماتـوا جميعا ، نعـاهم شـعيب ، مـوبخا إيـاهم ومؤنـبا وقـال يـا قـوم لقـد أبلغـتكم رسـالات ربـى ونـصحت لكـم ، وحرصـت علـى هدايـتكم بكـل مـا أقـدر عليه ، فلـم يـنفعكم ذلـك ، لأن الله لا يهـدى مـن يـضل ومـا لهـم مـن ناصـرين ، فلـست أتأسـف بعـد هـذا عليكم ؛ لأنكـم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا تخافون يوم الفضيحة .

موت شعيب وقبره

ذكـر الحـافظ ابـن عساكر عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن شعيبا عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام .

وعـن وهـب بن منبه: أن شعيبا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربى مكة بين دار الندوة ودار بنى سهم .

يوسف وإخوته

يقول الله تعالى فى سورة يوسف:

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾ [يوسف: ١ - ٦].

ففى هذه السورة يمدح الحق تبارك وتعالى كتابه العظيم الذى أنزله على عبده ورسوله الكريم، بلسان عربى فصيح، بين واضح جلى، يفهمه كل عاقل ذكى، فهو أشرف كتاب نزل من السماء نزل به أشرف الملائكة على أشرف الخلق، فى أشرف زمان ومكان بأفصح لغة وأظهر بيان.

ولقد قال الإمام أحمد: عن جابر، أن عمر بن الخطاب، أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبى ﷺ، قال: فغضب وقال: «**أتتهوكون فيها يا بن الخطاب، والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شىء فيخبرونكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى**»، (إسناد صحيح).

وروى هذا الحديث الإمام أحمد من وجه آخر عن عمر، فقال: وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «**والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم، إنكم حظى من الأمم، وأنا حظكم من النبيين**».

وقال ﷺ أيضا فى خطبته: «**يا أيها الناس... إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لى اختصارا، وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا، ولا يغرنكم المتهوكون**» ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفا حرفا.

القصـــة:

نبى الله يوسف: هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

وأمـه: راحيل بنت لابان ، ولـه إخوة من الذكور إحدى عشر أخا ، وأخت واحدة هى دينا .

ولقـد رأى يوسـف عليه السلام وهـو صـغير قبل أن يحتلم ، كـأن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر قد سجدوا لـه ، والكواكب إشارة إلى بقية أخوته ، والشمس والقمر إشارة إلى أبـيه وأمـه ، فهالـه ذلـك ، فلمـا اسـتيقظ قـص هذه الرؤيا على أبيه ، فعرف يعقوب أن يوسـف سـينال منـزلة عالـية ، ورفعة عظيمة فى الدنيا والآخرة ، بحيث يخضع لـه أبوه وأمه وإخـوته فـيها ، فأمـره بكتمانها ، وألاَّ يقصها على إخوته كى لا يحسدوه ويكيدوا لـه بأنواع الحيل والمكر .

الكواكب التى سجدت فى المنام

عن السدى ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر ، قال: أتى النبى ﷺ رجل من اليهود يقـال لـــه: (بـستانة الـيهودى) فقال: يا محمد ، أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها سـاجدة لـــه ، مـا أسماؤهـا ؟ قـال: فـسكت النبى ﷺ ، فلم يجبه بشىء ، ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها ، قال: فبعث إليه رسول الله ، فقال: «**هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها**» ، قال: نعم ، فقال: هى:

١ - جريان .	٢ - والطارق .	٣ - والذيال .
٤ - وذو الكتفان .	٥ - وقابس .	٦ - ووثاب .
٧ - وعمودان .	٨ - والفيلق .	٩ - والمصبح .
١٠ - والضروح .	١١ - وذو الفرع .	١٢ - والضياء: أى القمر

١٣ - والنور أى: الشمس .

فقال اليهودى: إى والله . إنها لأسماؤها .

واشتد حسد إخوة يوسف بحب أبيه له ، ولأخيه بنيامين (الأخ الشقيق ليوسف من أمهما راحيل) واتهموا أباهم بالضلال ، لأنه قدم حبهما عليهم جميعا ، فتشاوروا فى طرق لتحويل وجه أبيهم إليهم: إما بقتل يوسف أو بطرده وتغريبه ، فقال أحدهم وهو شمعون: ألقوه فى أعماق البئر يلتقطه بعض المسافرين ، ممن يردون البئر طلبا للماء ، فوافق الجميع .

وذهبوا إلى أبيهم وقالوا فى الليل: يا أبانا ، ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ، فأجابهم يعقوب: يا بنى ، يشق على أن أفارقه ساعة من النهار ، ومع هذا أخشى عليه أن تشتغلوا عنه ، فيأتى الذئب فيأكله ، لأنه صغير ولا يستطيع دفع الذئب عنه ، فردوا قائلين: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون .

وفى الصباح ، أخذ الإخوة يوسف من أبيهم ، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه ، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال ، وأجمعوا على إلقائه فى غيابة الجب (أى قعره) وهى الصخرة التى تكون فى وسطه ، يقف عليها (الماتح) وهو الذى ينزل ليملأ الدلاء ، إذا قل الماء .

فلما ألقوه به ، أوحى الله إليه: إنه لابد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التى أنت فيها ، وسوف تخبر إخوتك بصنيعهم هذا ، فى حال أنت فيها عزيز وهم محتاجون إليك ، خائفون منك .

فلما وضعوه فى البئر ورجعوا عنه ، أخذوا قميصه فلطخوه بشىء من دم (سخلة) وهى ولد الضأن ، ذبحوها وأخذوا من دمها ، فوضعوه على قميصه ليوهموا أباهم أن الذئب أكل يوسف ، ونسوا أن يخرقوا القميص لأن الذئب إذا أكل طفلا فلابد أن يمزق قميصه .

ورجعوا إلى أبيهم يبكون ، أى فى ظلمة الليل ليكون أمشى لغدرهم ، لا لعذرهم ، ولكن أباهم كان يفهم عداوتهم ليوسف ، ولهذا قال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، أى أن يعقوب فهم أنهم كاذبون ، وعليه أن يصبر ويستعين بالله على صنيعهم .

يوسف فى مصر

ولما وضع يوسف فى البئر، جلس ينتظر فرج الله ولطفه به، فجاءت سيارة (أى مسافرون) كانت بضاعتهم الفستق والصنوبر والبطم (حبة خضراء) آتية من الشام قاصدين ديار مصر، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه، تعلق فيه يوسف، فلما رآه ذلك الرجل قال: يا بشرى، هذا غلام وأخذوه معهم، ضمن تجارتهم ليبيعوه فى ديار مصر.

فلما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له، لحقوهم، وقالوا: هذا غلامنا آبق منا، فاشتروه منهم بثمن بخس.

قال ابن مسعود (رضى الله عنه): اشتروه بعشرين درهما، وزعوها على أنفسهم درهمين لكل واحد، وكان رجال السيارة فى شراء يوسف من الزاهدين فيه.

فلما وصلت السيارة مصر باعوا يوسف، وكان الشارى عزيز مصر وأمين الخزائن فيها واسمه (أطفير بن روحيب) وامرأة ذلك العزيز تسمى: (راعيل بنت رماييل) ولقبها زليخا، وقيل: إن عزيز مصر اشترى يوسف من السيارة بعشرين دينارا، وقيل: بوزنه مسكا - ووزنه حريرا، ووزنه ورقا، وكان ملك مصر فى ذلك الزمان هو (الريان بن الوليد) رجل من العماليق.

يقول الله تعالى فى سورة يوسف:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[يوسف: ٢١ - ٢٢].

يخبرنا الحق تبارك وتعالى أنه أكرم يوسف، بأن اشتراه عزيز مصر الذى قال لزوجته زليخا: أكرمى مثواه واعتنى به، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا.

ولذلك قال ابن إسحاق عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال:

(أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]، والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب (رضى الله عنهما).

ومن كرم الله أيضا أنه سبحانه علمه تأويل الأحاديث وفهمها وتعبير الرؤيا وتفسيرها، والله غالب على أمره، أى إذا أراد شيئا فإنه يقيض له أسبابا وأمورا لا يهتدى إليها العباد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ولما بلغ يوسف أشده أى أربعين سنة على أصح الأقوال، وهو السن الذى يوحى الله فيه إلى عباده النبيين آتاه الله الحكمة فى تصرفاته والعلم من قبل الله عز وجل.

يوسف وزليخا

عاش يوسف فى بيت عزيز مصر، وشب وترعرع، وكان شابا بديع الجمال والبهاء، فهو ابن راحيل بنت لابان، التى أعجبت أبيه يعقوب، فعمل ورعى الغنم سبعة أعوام ليظفر بها، رغم أن خاله لابان قد زوجه (ليا) أختها الكبرى ولكنه أصر على راحيل لحسنها وجمالها.

ولعل يوسف ورث الجمال والبهاء من جدة أبيه (سارة) لأن يعقوب بن إسحاق، وإسحاق بن سارة، التى كانت وقتئذ أجمل نساء الأرض بعد حواء، والتى جعلت فرعون مصر يطمع فيها ولكن الله نجاها منه.

ولقد مر الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج على يوسف فى السماء الثالثة، فقال: «**فإذا هو قد أعطى شطر الحسن**».

وقال أنس بن مالك (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال: «**أعطى يوسف وأمه شطر الحسن**».

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد عن ربيعة الجرشى قال: (قُسم الحسن نصفين، فأعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن، والنصف الآخر بين سائر الخلق).

وقال الإمام السهيلي: (إن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن فى ذريته من يوازيه فى جماله، وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه).

وامرأة العزيز: هى راعيل بنت رمابيل، وشهرتها زليخا.

قال ابن إسحاق: هى بنت أخت الملك الريان بن الوليد، ملك مصر فى ذلك الزمان، وهى فى غاية الجمال والمال والمنصب والشباب.

وقال أهل الكتاب: أن أطفير بن روحيب عزيز مصر وزوج زليخا، كان لا يأتى النساء، ولذلك كانت زليخا تعيش معه عذراء لهذا السبب.

وشب يوسف بشبابه وجماله خادما رقيقا لسيدته زليخا صاحبة الجاه والمال والشباب، فراودته عن نفسه وطلبت منه ما لا يليق بحاله ومقامه وأحكمت الخطة فى غياب زوجها، فلبست أحسن ثيابها، وأفخر لباسها وتهيأت له، وتصنعت وغلقت الأبواب عليها وعليه، وطلبت منه الفاحشة.

وقالت: هيت لك، أى: تعال واقترب منى، فإن جمالك ملك قلبى وعقلى.

ويقول الإمام القرطبى أنها قالت:

يا يوسف: ما أحسن صورة وجهك... قال: فى الرحم صورنى ربى.

يا يوسف: ما أحسن شعرك... قال: هو أول شىء يبلى منى فى قبرى.

يا يوسف: ما أحسن عينيك... قال: بهما أنظر إلى ربى.

يا يوسف: ارفع بصرك فانظر فى وجهى... قال: أخاف العمى فى آخرتى.

يا يوسف: أدنو منك وتتباعد عنى... قال: أريد بذلك القرب من ربى.

يا يوسف: القيطون (المخدع) فادخل معى.. قال: القيطون لا يسترنى من ربى.

يا يوسف: فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقض حاجتى... قال: إذن يذهب من

الجنة نصيبى .

ولما عرف يوسف صريح عباراتها وأنها تريده للزنا ، وأنه خادم وعبد مملوك لها ، ولابد للعبد من طاعة سيدته ، والامتثال لأوامرها ، ولكنه تلطف معها ، وكلمها بلغة الوفاء والإحسان لزوجها ، فقال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ [يوسف: ٢٣] .

أى لا يصح منى أن أفعل شيئا يغضب الله ، ويستعيذ العاقل من الله من فعله هذا من جانب ، أما الجانب الآخر: كيف أقابل إحسان زوجك إلى وحسن معاملته لى ، وإيوائى فى بيته ، ثم أخونه فى عرضه وشرفه ، وهذه خيانة فى منتهى الظلم ، والله لا يفلح الظالمون .

برهان الله ليوسف

قال المفسرون: إن من بلاغة القرآن ، وهو كلام الله تعالى أنه أحيانا يحدث تقديم وتأخير فى المعنى ، فالآية نصها:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف: ٢٤] .

قال المفسرون: (لولا أن رأى برهان ربه لهمت به وهم بها ، وهذا تنزيه لنبى الله يوسف ، أن يهم بمعصية) .

وقال محمد بن إسحاق: (إن يوسف عليه السلام أثناء مراودتها له ، رأى صورة أبيه يعقوب عاضا على إصبعه بفمه ، مستنكرا ومحذرا إياه من الإقدام على ذلك . . .) وبعض الروايات: أنه ضرب على صدر يوسف .

وقال العوفى: عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن يوسف رأى خيال الملك (سيده أطفير) حين دان من الباب .

وقال ابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظى: (قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فإذا كتاب فى حائط البيت:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢] ،

ثم قال ابن جرير: (والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله، تزجره عما كان هم بـه، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكـتوبا مـن الزجـر علـى ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى فى قولـه:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف: ٢٤].

كيد النساء

يقول الله تعالى:

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف: ٢٥ - ٢٩].

ولمـا راودت زليخا خادمها يوسف وطلبت منه الفاحشة بصريح العبارة، قابلها بلطف فى الكلام الحسن، وقال: إنه ربى أحسن مثواى، فكيف أخونه فى عرضه وشرفه.

ولكـن نـار الـشهوة وسـيطرة حـب يوسف على قلب زليخا، جعلتها تستخدم الحركة والقـوة بـأن جـرت خلفـه عـندما أراد أن يهـرب منها متجها إلى الباب، فأمسكت بقميصه ومـزقته بحـرقة الانـتقام، وكيف لا يلبى طلبها ويستجيب لها وهى سيدته وهو خادمها عليه السمع والطاعة لطلباتها.

ولكـن كـيف يستجيب لها فى شيء محرم وهو الفاحشة، وهو من سلالة الأنبياء وسيد الـسادة النجبـاء، الـسبعة الأتقـياء المذكـورين فـى الصحيحين (البخارى ومسلم) عن خاتم الأنبياء فى قولـه ﷺ عن رب الأرض والسماء:

«سـبعة يظلـهم الله فى ظلـه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، ورجل ذكر الله خاليا

ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله» .

ففى اللحظة التى مزقت زليخا قميص يوسف عند الباب ، دخل زوجها فبدرته بالكلام وحرضته عليه وقالت:

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف: ٢٥] .

اتهمته وهى المتهمة ، وبرأت عرضها ونزهت ساحتها ، فلهذا قال يوسف: ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ [يوسف: ٢٦] ، احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [يوسف: ٢٦] .

قيل: كان ذلك الشاهد صغيرا فى المهد ، قال ابن عباس (رضى الله عنهما) وهذا مصداق الذين قالوا: إن المتكلمين فى المهد أربعة: (صاحب يوسف ، وابن ماشطة فرعون ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم) .

فقال: إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين .

أى إن كان القميص قد من الأمام فهو الذى راودها فمزقت مقدمة قميصه ، وإن كان القميص قد من دبر فهى التى لحقت به وأرادته فقدت قميصه من الخلف .

ولما ظهر تمزيق القميص من الخلف ، قال زوجها: هذا الذى جرى من مكركن ، أنت التى راودتيه عن نفسه ، ثم اتهمتيه بالباطل ، ثم قال زوجها ليوسف: أعرض عن هذا ولا تذكره لأحد ، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن ، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها ، والتوبة إلى ربها ، لأن العبد إذا تاب تاب الله عليه ، لأن المصريين كانوا يعبدون الأصنام ورغم ذلك يعرفون أن الله يغفر الذنوب ، ويؤاخذ بها وحده ، لا شريك له فى ذلك .

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف: ٣٠ - ٣٢].

يذكر الله تعالى: ما كان من قبل نساء المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء فى الطعن على امرأة العزيز وعيبها، والتشنيع عليها فى مراودتها فتاها وحبها الشديد له، وهو لا يساوى هذا؛ لأنه مولى من الموالى وليس مثله أهلا لهذا؛ ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠].

فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن فجمعتهن فى منزلها، وأعتدت لهن ضيافة مثلهن وأحضرت فى جملة ذلك شيئا مما يقطع بالسكاكين كالأترج (نوع من الفاكهة) وآتت كل واحدة منهن سكينا، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب وهو فى غاية طراوة الشباب.

وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة، فلما رأينه أكبرنه أى أعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا فى بنى آدم وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يجززن فى أيديهن بتلك السكاكين، ولا يشعرن بالجراح.

قال ابن مسعود (رضى الله عنه): كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه، وقال غيره: كان فى الغالب مبرقعا؛ لئلا يراه الناس.

ولكن بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته فأبى أشد الإباء، ونأى ودعا فقال فى دعائه:

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف: ٣٣].

يوسف فى السجن

قال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يوسف: ٣٥ - ٤٢] .

يذكر الله تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم: أى ظهر لهم من الرأى بعدما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ، ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية ، وأحمد لأمرها ، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها ، فسجنوه ظلما وعدوانا .

وهذا كان مما قدر الله له ، ومن جملة ما عصمه به فإنه أبعد له عن معاشرتهن ومخالطتهن .

قال الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦] .

قيل: كان أحدهما ساقى الملك واسمه فيما قيل (نبوا) والآخر خباز الملك ، يعنى الذى يلى طعامه ، واسمه فيما قيل (مجلث) وكان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما ، فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه ، ودله وطريقته ، وقوله وفعله ، وكثرة عبادته ربه ، وإحسانه إلى خلقه ، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه .

قال أهل التفسير:

رأيا فى ليلة واحدة، أما الساقى فرأى كأن ثلاث قضبان من حبلة (فرع عنب) وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه، ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز، وضوارى الطيور تأكل من السلة الأعلى، فقصاها على يوسف وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها، وقال:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف: ٣٧].

قيل: معناه مهما رأيتما من حلم، فإنى أعبره لكم قبل وقوعه، فيكون كما أقول، وقيل: معناه أنى أخبركم بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلوا وحامضا.

كما قال عيسى ابن مريم:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال لهما: إن هذا من تعليم الله إياى، لأننى مؤمن به موحد له، متبع ملة آبائى الكرام: إبراهيم الخليل، وإسحاق، ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله، ويجب علينا أن ندعو الناس ونرشدهم وندلهم على الله، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

وكانت دعوة يوسف لهما فى هذه الحالة فى غاية الكمال، لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقى ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى عبادة الواحد القهار وهو الأنفع لهما، مما سألا عنه وطلبا منه.

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى التوحيد وترك ما يعبدون من دون الله وهى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، ثم قال لهما:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾ [يوسف: ٤١] ، قالوا: وهو الساقى .

﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴾ [يوسف: ٤١] قالوا: وهو الخباز .

﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١] .

أى وقع هذا لا محالة ، ووجب كونه على كل حالة ولهذا جاء فى الحديث:

«**الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر ، فإذا عُبرت وقعت**» .

وقد روى عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، أنهما قالا: (لم نر شيئا ، فقال لهما: ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١] .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يوسف: ٤٢] .

يخبر الحق تبارك وتعالى ، أن يوسف قال للساقى: اذكر أمرى وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك ، وفى هذا دليل على جواز السعى فى الأسباب ، ولا ينافى التوكل على رب الأسباب .

فنسى الساقى إخبار الملك بأمر يوسف فلبث فى السجن بضع سنين .

والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع ، وقيل: إلى السبع ، وقيل: إلى الخمس ، وقيل: ما دون العشرة ، حكاها الثعلبى ، والله أعلى وأعلم .

رؤيا الملك

يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يوسف: ٤٣ ، ٤٤] .

هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن ، على وجه الاحترام

والإكرام، وذلك أن ملك مصر (وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح) رأى هذه الرؤيا.

قال أهل الكتاب: رأى كأنه على حافة نهر، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان، فجعلن يرتعن فى روضة هناك، فخرجت سبع هزال من ذلك النهر، فرتعن معهن، ثم ملن عليهن فأكلتهن فاستيقظ مذعورا، ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة، وإذا بسبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن، فاستيقظ مذعورا.

فلما قصها على ملئه وقومه، لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها، بل قالوا: أضغاث أحلام، أى أخلاط أحلام من الليل، لعلها لا تعبير لها، ومع هذا فليس لنا خبرة بذلك، فعندئذ تذكر الناجى وهو الساقى الذى وصاه يوسف أن يذكره عند ربه، فنسيه إلى حينه هذا، وذلك من تقدير الله عز وجل، وله الحكمة فى ذلك، فلما سمع الساقى رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها، تذكر أمر يوسف.

ولهذا قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف: ٤٥ - ٤٩].

وعند أهل الكتاب: أن الملك لما ذكره له الساقى استدعاه إلى حضرته، وقص عليه ما رآه، ففسر له، وهذا غلط، والصواب ما قصه الله فى كتابه القرآن.

فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط، ولا طلب الخروج سريعا بل أجابهم إلى ما سألوه، وعبر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب، ويعقبها سبع جدب، ثم يأتى بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، أى يعنى ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم.

وأرشدهم إلى ما يعتمدونه فى حالتى خصبهم وجدبهم ، وما يفعلون من ادخار حبوب سنى الخصب فى السبع الأول فى سنبله ، إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل ، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأى والفهم .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف: ٥٠ - ٥٣] .

لما أحاط الملك علما بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام ، وتمام عقله ، ورأيه السديد وفهمه ، أمر بإحضاره ليكون من جملة خاصته ، فلما جاءه الرسول بذلك أحب يوسف ألاَّ يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلما وعدوانا وأنه برىء الساحة مما نسبوه إليه بهتانا ، قال ارجع إلى ربك فاسأله عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن .

قيل معناه: إن سيدى العزيز يعلم براءتى مما نسب إلى ، أى فمر الملك فليسألهن: كيف كان امتناعى الشديد عند مراودتهن إياى .

فلما سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر ، وما كان منه من الأمر الحميد ، وقلن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، فعندئذ قالت زليخا: الآن حصحص الحق أى: ظهر وتبين ووضح ، أنا راودته عن نفسه ، وأنه حبس ظلما وعدوانا .

قيل: إنه من كلام يوسف أى إنما طلبت تحقيق هذا ، ليعلم العزيز أنى لم أخنه بالغيب .

وقيل: إنه من كلام زليخا ، أى: إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر ، وإنما كان مراودة ، لم يقع معها فعل فاحشة .

﴿ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف: ٥٣]

قيل: إنه من كلام يوسف . . وقيل: من كلام زليخا .

وهو مفرع على القولين الأولين، وكونه من كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى، والله أعلم.

خروج يوسف من السجن

يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٧].

لما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه قال: أحضروه لأستخلصه لنفسي وأجعله من خاصتي، من أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتي، ولما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله، قال الملك: أنت ذو مكانة وأمانة، وطلب يوسف منه أن يكون على خزائن الأرض وأشرف على الإهراء (وهو مكان كبير كالبيت الضخم يجمع فيه طعام السلطان) لما يتوقع من حصول الخلل والضياع بعد مضى سبع سنى الخصب، وأخبر يوسف الملك أنه حفيظ وقوى على حفظ ما لديه من أموال وعليم بضبط الأشياء والإهراء.

وعند أهل الكتاب أن فرعون مصر، عظّم يوسف عليه السلام جدا، وسلطه على جميع أرض مصر، وألبسه خاتمه، وألبسه الحرير، وطوقه الذهب، وحمله على مركبه الثانى، ونودى بين يديه: أنت ربى ومسلط، وقال له: لست أعظم منك إلا بالكرسى.

قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، وزوجه امرأة عظيمة الشأن.

وحكى الثعلبى: أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف.

وقيل: أنه لما مات أطفير عزيز مصر، زوجه الملك زليخا فوجدها عذراء لأن زوجها كان لا يأتى النساء، فولدت ليوسف رجلين هما: أفرايم ومنسا.

واستوثق ليوسف ملك مصر ، وعمل يوسف بالعدل فأحبه الرجال والنساء .

وحكى أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة ، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة ، وفى كل ذلك يجاوبه بكل لغة منها ، فأعجبه ذلك مع حداثة سنه ، والله أعلم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف: ٥٦] أى: بعد السجن والضيق والحصر ، صار يوسف مطلق الركاب بديار مصر يتبوأ منها حيث يشاء ، وهذا من جزاء الله له لعفته .

وذكر محمد بن إسحاق: أن صاحب مصر - الوليد بن الريان - أسلم على يد يوسف عليه السلام ، والله أعلى وأعلم .

مجيء أخوة يوسف لمصر

يقول الله تعالى:

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يوسف: ٥٨ - ٦٢] .

جاءت سنو الجدب فعمت البلاد والعباد ، وجاء إخوة يوسف إلى البلاد المصرية ليشتروا الحبوب والطعام ، وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم فى أمور الديار المصرية دنيا ودين ، فلما دخلوا عليه عرفهم ، ولم يعرفوه لأنه لم يخطر على بالهم ما صار إليه يوسف من المكانة والعظمة .

وعند أهل الكتاب: أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم ، وأراد ألاَّ يعرفوه فأغلظ لهم فى القول ، وقال: أنتم جواسيس ، جئتم لنا لتأخذوا خير بلادى ، فقالوا: معاذ الله ، إنما جئنا نمتار (نشترى) لقومنا من الجهد والجوع الذى أصابنا ، ونحن بنو أب واحد من كنعان ، ونحن اثنى عشر رجلا ، ذهب منا واحد ، وصغيرنا عند أبينا .

فقال: لابد أن أستعلم أمركم - وعندهم - أى أهل الكتاب قالوا: أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم، واحتبس شمعون عنده، ليأتوه بالأخ الآخر، والله أعلم.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ [يوسف: ٥٩].

أى أعطاهم من الميرة، ما جرت به عادته، من إعطاء كل إنسان حمل بعير، لا يزيده عليه، وكان قد سألهم عن حالهم وكم هم، فقالوا: كنا اثنى عشر رجلا فذهب منا واحد، وبقى شقيقه عند أبينا، فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتونى به معكم، ألا ترونى أنى قد أحسنت نزلكم وقراكم، فرغبهم ليأتوه به، ثم رهبهم وقال: إن لم تأتونى به فلست أعطيكم ميرة، ولا أقربكم بالكلية، عسى ما أسدى إليكم.

فاجتهدوا فى إحضاره معهم، ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب، وقالوا: سنجتهد فى مجيئه، وإنا لقادرون على تحصيله فى العام المقبل.

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهى ما جاؤوا به (وهى صرر من ورق وما أشبه) يتعوضون به عن الميرة، فوضعها الفتيان فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون لعلهم يعرفونها إذا رجعوا إلى بلادهم.

قيل: أراد يوسف أن يردوها إذا وجدوها فى بلادهم.

وقيل: خشى يوسف ألاَّ يكون عندهم ما يرجعون به فى المرة الثانية القادمة.

وقيل: تذمم واستحيا أن يأخذ منهم عوضا عن الميرة، والله أعلم.

يقول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ

﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف: ٦٣ - ٦٦].

يذكر الحق تبارك وتعالى: ما كان من أمرهم، بعد رجوعهم إلى أبيهم، وقولهم له:

﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ [يوسف: ٦٣]، أى بعد عامنا هذا، إن لم ترسل معنا أخانا، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا الكيل، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، فقالوا: يا أبانا: لا نريد أى شىء وقد ردت إلينا بضاعتنا، وسوف نشترى ونأتى أهلنا بما يصلحهم فى سنتهم ومحلهم، ونحفظ أخانا ونزداد بسببه كيل بعير.

وكان يعقوب عليه السلام يضن بولده بنيامين، ويحافظ عليه لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه يوسف، ويتسلى به عنه، ويتعوض بسببه منه، ولذلك قال:

﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦].

أى لا تغلبوا كلكم عن الإتيان به، فلما أكد المواثيق وقرر العهود، واحتاط لنفسه فى ولده - ولن يغنى حذر من قدر - ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة (أى الحبوب والطعام) لما بعث الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكام، والرب تعالى يقدر ما يشاء، ويختار ما يريد، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم.

ثم قال: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف: ٦٧ - ٦٨].

ثم أمر يعقوب أولاده: ألاَّ يدخلوا المدينة من باب واحد، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة.

قيل: أراد ألاَّ يصيبهم أحد بالعين، وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة، وصورا بديعة، قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدى.

وقيل: أراد يعقوب عليه السلام أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبرا ليوسف، أو يحدثون عنه بأثر، قاله إبراهيم النخعي . . . والأول أظهر ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

وعند أهل الكتاب: أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل، وأخذوا الدراهم الأولى وعرضا آخر.

يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يوسف: ٦٩ - ٧٥].

يذكر الحق تبارك وتعالى: ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف، وإيوائه إليه، وإخباره له سرا عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم، وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه وهو صغير.

ثم احتال يوسف على أخذ أخيه بنيامين منهم وتركه إياه عنده دونهم، فأمر فتيانه بوضع سقايته وهي التي كان يشرب بها، ويكيل بها للناس الطعام في متاع بنيامين، ثم أعلنهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك، ووعدهم إن يردوه يعطهم حمل بعير.

فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قال لهم، وقالوا: تالله ما جئنا لنفسد في الأرض، وأنتم تعلمون أننا ما جئنا للسرقة.

وكانت شريعتهم تفيد: أن السارق يدفع إلى المسروق منه ما يريد.

يقول الله تعالى:

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

[يوسف: ٧٦ - ٨٢].

لما نجحت خطة يوسف لأخذ أخيه بنيامين، بدأ البحث عن صواع الملك فى أوعيتهم فلم يجد الصواع ثم استخرج الصواع من وعاء أخيه، وقالوا: إنه سرق أخوه يوسف من قبل، وحاولوا إبدال بنيامين بأحدهم لأن أباه شيخ كبير وأخذ عليهم مواثيق وعهود فلم يرض يوسف، وقال كبيرهم وهو (روبيل): بناء على المواثيق التى أخذها أبى علينا لن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى، أو يحكم الله فينا وهو خير الحاكمين.

إحساس يعقوب باللقاء

يقول الله تعالى: قال يعقوب عليه السلام:

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف: ٨٣ - ٩٢].

تحقيق رؤيا يوسف

وقال الله تعالى في سورة يوسف:

﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ٩٣ - ١٠١].

موت يعقوب

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ثم توفي عليه السلام، وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق.

قال السدى: فصبره وسيره إلى بلاد الشام، فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام.

قصة أيوب والمرض

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء:

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

قال ابن إسحاق: إن أيوب كان رجلا من الروم، واسمه: أيوب بن موص بن رازح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقال غيره: هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب، وقيل: غير ذلك.

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام، وقيل: كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقى فى النار، فلم تحرقه.

والمشهور الأول، لأنه من ذرية إبراهيم كما جاء فى قول الله تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٤].

والصحيح أن أيوب من سلالة العيص بن إسحاق، وامرأته قيل: اسمها (ليا) بنت يعقوب، وقيل: (رحمة) بنت أفراثيم، وقيل (ليا) بنت منسا بن يعقوب، وهذا أشهر.

وروى ابن عساكر من طريق الكلبى أنه قال: أول نبى بعث هو إدريس، ثم نوح، ثم إسماعيل، ثم إسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوط، ثم هود، ثم صالح، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم عرفى بن سويلخ بن أفراثيم بن يوسف بن يعقوب، ثم يونس بن متى من بنى يعقوب، ثم أيوب ابن رزح.

وفى بعض هذا الترتيب نظر، فإن هودا وصالحا المشهور أنهما بعد نوح وقيل: إبراهيم، والله أعلم.

مرض أيوب

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام والعبيد والمواشى والأراضى المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران.

وحكى ابن عساكر: أن الأراضى كلها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير، فسلب منه ذلك جميعه، وابتلى فى جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضو سليم، سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بهما، وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل فى ليله ونهاره وصباحه ومسائه.

وطال مرضه حتى عافاه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارج البلد، وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها.

فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته، وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه، وتقوم بأوده (رضى الله عنها وأرضاها) وهى صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل**».

وقال ﷺ: «**يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه**».

ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا، حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب المثل أيضا بما حصل له من أنواع البلايا.

وقد روى عن وهب بن منبه، وغيره من علماء بنى إسرائيل فى قصة أيوب خبر طويل، فى كيفية ذهاب ماله وولده، وبلائه فى جسده، والله أعلم بصحته.

مدة مرض أيوب

روى مجاهد (رحمه الله) أنه قال:

(كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدرى، وقد اختلفوا فى مدة بلواه على أقوال: فزعم وهب أن أيوب ابتلى ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص.

وقال أنس (رضى الله عنه): ابتلى سبع سنين وأشهرا، وألقى على مزبلة لبنى إسرائيل تختلف الدواب فى جسده، حتى فرج الله عنه، وأعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه.

وقال حميد: مكث أيوب فى بلواه ثمانية عشر سنة.

وقال السدى: تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، فلما طال عليها قالت: يا أيوب، لو دعوت ربك لفرج عنك، فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحا، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة، فجزعت من هذا الكلام، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام.

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها، لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفا أن يناهم من بلائه، أو تنقل العدوى إليهم بمخالطة زوجها المريض، فلم تجد أحدا يستخدمها فباعت إحدى ضفيرتيها لبعض بنات الأشراف لتشترى طعاما طيبا لزوجها، فأتت به أيوب، فقال: من أين لك هذا، وأنكره فقالت: خدمت به أناسا، فلما كان الغد، لم تجد أحدا يستخدمها، فباعت الضفيرة الأخرى بطعام، فأتت به زوجها، فأنكره وحلف ألا يأكل منه حتى تخبره، فكشفت عن رأسها خمارها فلما رأى رأسها محلوقة، قال فى دعائه:

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

ظن أصحاب أيوب بـه

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله ابن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب أخوان، فجاءا يوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع مثله من شيء قط فقال:

(اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقنى فصدق من السماء وهما يسمعان).

ثم قال: (اللهم إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط، وأنا أعلم مكان عار فصدقنى فصدق من السماء، وهما يسمعان).

ثم قال: (اللهم بعزتك وخر ساجدا فقال: اللهم بعزتك: لا أرفع رأسى أبدا حتى تكشف عنى) فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه.

وقال ابن أبى حاتم، وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى: أنبأنا ابن وهب، أخبرنى نافع بن يزيد، عن عقيل، عن الزهرى، عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «**إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان عليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين، قال صاحبه: وما ذاك، قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به، فلما راحا إليه، لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدرى ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا فى حق**».

قال: وكان يخرج فى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه.

فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه أن: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص: ٤٢].

فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك هل رأيت نبى الله هذا المبتلى، فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا، قال: فإنى أنا هو.

وكان له أندران (جرنان) أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق (أى الفضة) حتى فاض.

بعد الصبر فرج

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أنبأنا على بن زيد عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: (وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس فى ناحية، فجاءت امرأته فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله، أين ذهب هذا المبتلى الذى كان هاهنا.

لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك أنا أيوب، قالت: أتسخر منى يا عبد الله، فقال: ويحك أنا أيوب قد رد الله على جسدى).

وقال ابن عباس (رضى الله عنهما): ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم.

وقال وهب بن منبه: (أوحى الله إليه: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك، وقرب عن صحابتك قربانا، واستغفر لهم، فإنهم قد عصونى فيك).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا همام، عن قتادة عن النضر بن أنس، عن بشير بن نهيك، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**لما عافى الله أيوب عليه السلام، أمطر عليه جرادا من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده، ويجعل فى ثوبه، قال: فقيل له: يا أيوب، أما تشبع، قال: يا رب.. ومن يشبع من رحمتك**»، رواه ابن حبان فى صحيحه.

إصلاح أهله وامرأته

روى البخارى من حديث عبد الرزاق، وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثى (أى يغترف) فى ثوبه، فناداه الله عز وجل: يا أيوب.. ألم أكن أغنيتك عما ترى، قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لى عن بركتك**».

وقوله تعالى: ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ ﴾ [ص: ٤٢] أى اضرب الأرض برجلك، فامتثل ما أمر به فأتبع الله عينا باردة الماء، وأمر أن يغتسل فيها، ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى، والسقم والمرض، الذى كان فى جسده ظاهرا وباطنا، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالا تاما ومالا كثيرا حتى صب له من المال صبا، مطرا عظيما جرادا من ذهب.

وأخلف الله له أهله، كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

فقيل أحياهم الله بأعيانهم، وقيل آجره فيمن سلف، وعوضه عنهم فى الدنيا بدلهم، وجمع له شمله بكلهم فى الدار الآخرة رحمة من عندنا أى: رفعنا عنه شدته، وكشفنا ما به من ضر، رحمة منا به ورأفة وإحسانا، وذكرى للعابدين، أى تذكرة لمن ابتلى فى جسده وماله أو ولده، فله أسوة بنبى الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك، فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه.

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال هى (رحمة) من هذه الآية، فقد أبعد النجعة وأغرق النزع، وقال الضحاك عن ابن عباس (رضى الله عنهما):

(رد الله إليها شبابها، وزادها حتى ولدت له ستة وعشرين ولدا ذكرا، وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية، ثم دين إبراهيم).

وقالوا: فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط لأنها باعت ضفائرها.

وقيل: لأنه عارضها الشيطان فى صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب، فأتته فأخبرته، فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها مائة سوط فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثا وهو كالعثكال الذى يحمل الشماريخ فيجمعها كلها ويضرب به ضربة واحدة، ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط، فيبر بقسمه ولا يحنث.

* * *

الفصل الثانى
موسى وفرعون مصر

قال الله تعالى فى سورة القصص:

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٣ - ٤] .

نبى الله موسى: هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم جميعا الصلاة والسلام .

قال السدى: إن اسم أم موسى (أيارخا) ، وقيل: (أياذخت) .

أما فرعون فقد علا فى الأرض: أى تجبر وعتا ، وطغى وبغى ، وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى ، وجعل أهلها شيعا: أى قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله .

وكانوا إذ ذاك خيال أهل الأرض ، وقد سلط الله عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر ، يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف ، وأرادها وأدناها ومع هذا يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين .

وكان من أسباب هذا الصنيع القبيح لبنى إسرائيل ، كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم الخليل ، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه ، وكانت هذه البشرى مشهورة فى بنى إسرائيل .

فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمراضه وأساورته ، وهم يسمرون عنده ، فأمر بقتل أبناء بنى إسرائيل حذرا من وجود هذا الغلام ضمن المولودين - ولن يغنى حذر من قدر .

رؤيا فرعون

ذكر السدى عن أبى صالح وأبى مالك، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وعن مرة عن ابن مسعود (رضى الله عنه) عن أناس من الصحابة (رضوان الله عليهم جميعا) قالوا: إن فرعون رأى فى منامه كأن نارا قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضر بنى إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان.

ولهذا قال الله تعالى فى سورة القصص: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

يوضح الحق تبارك وتعالى أن الله يريد أن يمن على المستضعفين فى الأرض وهم بنو إسرائيل، وأن يجعلهم الوارثين، يؤول إليهم حكم مصر وبلادها، ويجعل الضعيف قويا والمقهور قاهرا، والذليل عزيزا، ويخرج لهم من الأرض جنات وعيوناً.

والمقصود: أن فرعون أخذ كل أنواع الحيطة والحذر أن يوجد ذلك الغلام الذى سيولد فى بنى إسرائيل، ويزيل ملك مصر وفرعون على يديه، حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى من النساء فيعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكرا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته.

هذا والقدر يقول: يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده، وسلطة بأسه، واتساع سلطانه قد حكم العظيم الذى لا يغالب ولا يمانع، ولا تخالف أقداره: إن هذا المولود الذى تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك، وأنت الذى تتبناه وتتفداه، ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاء به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السماوات

والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوى الشديد، ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التى لا مرد لها.

مولد موسى عليه السلام

يقول الله تعالى فى سورة القصص:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [القصص: ٧ - ١١].

وقد ذكر بعض المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون.

فأمر فرعون بقتل الأبناء عاما وأن يتركوا عاما، فذكروا أن هارون عليه السلام ولد فى عام المسامحة، وأن موسى ولد فى عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعا، واحترزت من أول ما حملت به ولم يكن يظهر عليها مخايل الحمل.

فلما وضعت ألهمت من الله أن اتخذت له تابوتا، فربطته فى حبل، وكانت دارها متاخمة لنهر النيل، فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته فى ذلك التابوت، فأرسلته فى البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها، وفى إحدى المرات أرضعت موسى ونسيت أن تربط الحبل فسار التابوت فى النيل.

ذكر المفسرون:

أن الجوارى التقطت التابوت من النيل، وكان التابوت مغلقا، فلم يتجاسرون على فتحه، حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون (آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد)

الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف عليه السلام .

فلما فتحت باب التابوت وكشفت الحجاب ، ورأت وجه موسى بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبا شديدا جدا .

فلما جاء فرعون ، قال: ما هذا ، وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ، ودافعت عنه وقالت: قرة عين لى ولك لا ، فقال لها فرعون:

أما لك فنعم ، وأما لى فلا ، أى لا حاجة لى به ، والبلاء موكل بالمنطق .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص: ١٠] .

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: إن أم موسى أصبح قلبها خاليا من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى ، وكادت أن تسأل عنه جهرة ، ولكن الله صبّرها وثبتها ، وقالت لأخته تتبعى أثره ، واطلبى لى خبره ، وإياك أن يشعر بك أحد ، فجعلت الأخت تنظر إليه وكأنها لا تريده .

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص: ١٢] .

لما استقر موسى بدار فرعون ، أرادوا أن يغذوه برضاعة ، فلم يقبل ثديا ولا طعاما ، فحاروا فى أمره ، فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق ، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته ، فبينما هم وقوف به ، والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته فلم تظهر أنها تعرفه ، بل قالت:

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص: ١٢] .

قال ابن عباس (رضى الله عنهما): لما قالت ذلك ، قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ قالت: رغبة فى سرور الملك ، ورجاء منفعته .

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه

ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، وذهب البشير إلى (آسية) يعلمها بذلك ، فاستدعت آسية أم موسى ، وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن إليها ، فأبت أم موسى وقالت: إن لى بعلا وأولادا ، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى ، فأرسلته معها ، ورتبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات والكسارى والهبات ، فرجعت به تحوزه إلى رحلها ، وقد جمع الله شمله بشملها ، لتعلم أن الله وعده حق ولن يخلف الله وعده .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص: ١٤] .

يخبر الحق تبارك وتعالى أنه سبحانه أنعم على أمه برده لها ، وإحسانه بذلك وامتنانه عليها ، شرع فى ذلك ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى وهو احتكام الخلق والخُلق ، وهو سن الأربعين آتاه الله حكما وعلما ، وهو النبوة والرسالة التى كان بشر بها أمه حين قال:

﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧] .

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص: ١٥ - ١٦] .

ولما دخل المدينة فى نصف النهار وجد فيها رجلين يقتتلان ويتهارشان هذا من شيعته أى إسرائيلى ، وذاك من عدوه أى قبطى فاستغاثه الإسرائيلى على القبطى ، وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة ؛ لأنه فرعون تبناه وقام بتربيته ، وكانت رجال بنو إسرائيل قد عزوه وصارت لهم وجاهة ، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله من الرضاعة فاستغاثه الإسرائيلى على ذلك القبطى ، قام موسى فطعن القبطى بجمع كفه - وقالوا: بعصىً كانت معه ، فمات القبطى لضعفه وقوة طعن موسى له ، وكان ذلك القبطى كافرا لم يرد موسى قتله ولكن أراد زجره وردعه .

ورغم هذا قال موسى: هذا من عمل الشيطان واستغفر الله من فعلته ، فغفر له .

موسى بأرض مدين

يقول الله تعالى:

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾ [القصص: ١٨ - ٢٧].

فلما علم فرعون أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس، فأرسل فى طلبه، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب، وقال: يا موسى، إن القوم يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج فورا.

فخرج موسى من مصر على الفور على وجهه لا يهتدى إلى الطريق، ولا يعرفه وقال: رب نجنى من القوم الظالمين، ولما ورد بئر مدين، وهى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام وجد فيها الرعاة يسقون غنم، ومن دونهم ابنتان تتكفكفان بأغنامهما مخافة أن تختلط أغنامهما بغنم الناس الآخرين.

قال المفسرون: وذلك أن الرعاة كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجىء هاتان البنتان فيشربان غنمهما فى فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم رد الحجر

كما كان ، قال أمير المؤمنين عمر: (وكان لا يرفعه إلا عشرة رجال) .

ثم تولى إلى الظل ، قالوا: وكان ظل شجرة من السمر ، وأنه رآها خضراء فجلس تحتها .

وقال ابن عباس (رضى الله عنهما): إن موسى سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل (وهو الفجل) وورق الشجر وكان حافيا ، سقطت نعلا قدميه من الحفاء ، وجلس فى الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

ولما جلس موسى عليه السلام فى الظل قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] سمعته المرأتان فيما قيل ، فذهبتا إلى أبيهما ، فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام ، فأمر إحداهما: أن تذهب إليه فتدعوه ، صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة .

وقص موسى قصته مع فرعون على أبيهما وهو (شعيب) فقال له: لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، ولما أضافه شعيب وأكره مثواه ، قالت إحدى البنتين لأبيها: يا أبت استأجره أى: لرعى غنمك ، ثم مدحته بأنه قوى أمين .

قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق: لما قالت ذلك ، قال لها أبوها: وما علمت بهذا ، فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال: كونى خلفى وإذا اختلفت الطريق احذفى حجرا أعلم به الطريق .

موسى يعود إلى مصر

لما تزوج موسى ابنة شعيب الصغرى ، ومكث عشر سنين يرعى غنم شعيب ، وهذا أغلى مهر فى العالم حتى الآن ، قضاها موسى وآجر نفسه (بعفة فرجه وطعمة بطنه) .

أراد موسى فراق شعيب ، ليعود إلى قومه بنى إسرائيل بأرض مصر ، فقال لامرأته أن تسأل أباها: أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت

غنمه، من قالب لون ما ولد ذلك العام، وكانت غنم شعيب سوداء حسانا.

فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها، ثم وضعها فى أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها، ووقف موسى بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة إلا شاة أو شاتين، فأتأمت وألبنت (أى تغيرت ألوانها) فى المواليد، ووضعت كلها فى قوالب ألوان، ليس فيها: قشوش ولا ضبوب ولا غزوز ولا ثعول ولا كموش تفوت الكف.

قال النبى ﷺ: «**لو افتتحتم الشام، وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية**».

قال ابن لهيعة: الغنم القشوش: أى الغنم واسعة الشخب.

والضبوب: الغنم طويلة الضرع تجره.

والعزوز: الغنم ضيقة الشخب.

والثعول: الغنم الصغيرة الضرع كالحلمتين.

والكموش: الغنم التى لا يحكم الكف على شرعها لصغره.

وقال ابن جرير (موقوفا): حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: لما دعا نبى الله موسى صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها، فلك ولدها، فعمد موسى فوضع حبالا على الماء فلما رأت الحبال فزعت، فجالت جولة، فولدن كلهم بلقاء إلا شاة واحدة فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام.

يقول الله تعالى:

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾

أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص: ٢٩ - ٣٢].

قال المفسرون: وفى ليلة مظلمة باردة تاه موسى وزوجته فى طريقهم، فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف، وجعل يورى زناده فلا يرى شيئا، واشتد الظلام والبرد.

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارا تتأجج فى جانب الطور، وهو الجبل الغربى منه عن يمينه، فقال لأهله: امكثوا، إنى آنست نارا وكأنه والله أعلم رآها دونهم؛ لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة ولا يصلح رؤيتها لكل أحد.

لعلى أستعلم من عندها عن الطريق، أو آتيكم منها بجذوة وقد أتاهم بخبر وأى خبر، ووجد عندها هدى، وأى هدى، واقتبس منها نورا وأى نور، حيث قال الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا أَتَىٰهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [طه: ١١ - ١٦].

قال بعض المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التى رآها فانتهى إليها وجدها تأجج فى شجرة خضراء من العوسج (الشوك) وكل ما لتلك النار فى اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة فى ازدياد، فوقف متعجبا، وكانت تلك الشجرة فى لحف الجبل، غربى منه عن يمينه، وكان موسى فى واد اسمه (طوى) فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه فناداه ربه بالوادى المقدس طوى، فأمره أولا بخلع نعليه تعظيما وتكريما وتوقيرا لتلك البقعة المباركة، ولاسيما فى الليلة المباركة، وقال الله تعالى:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا

مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه: ١٧ - ٢٢] .

وهذان البرهانان اللذان أيده الله بهما ، وهما العصا واليد ، وذلك مقام أظهر فيه الخالق العظيم ، الذى بهر به العقول والأبصار ، حين ألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، أى عظيم الشكل ، حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رعب شديد وخوف عظيم ، بحيث حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة فى اليوم الواحد ، وكان قبل ذلك لا يتبرز فى كل أربعين يوما إلا مرة واحدة .

ولما أدخل موسى يده فى جيبه واستخرجها أخرجها وهى كفلقة القمر ، تتلألأ نورا يبهر الأبصار ، فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى .

فلما عاد موسى من بلاد مدين ، دخل على أمه وأخيه هارون وهما يتعشيان من طعام فيه (الطفشيل) وهو اللفت ، فأكل معهما ، ثم قال موسى: يا هارون إن الله أمرنى وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادة الله ، فقم معى ، فلما قاما يقصدان باب فرعون ، فإذا هو مغلق ، فقال موسى للبوابين والحجبة: أعلموه أن رسول الله بالباب فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به .

فلما دخل موسى وهارون على فرعون ، قال فرعون: كما جاء فى سورة طه:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه: ٤٩ - ٥٥] .

يخبر الله تعالى: أن فرعون أنكر نعم الله عليه ، ومن شقاوة فرعون وكثرة جهله وقلة عقله ، فى تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها ، وقوله لموسى:

إن هذا الذى جئت به سحر ، ونحن نعارضك بمثله ، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت ومكان معلوم .

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس، ولهذا قال: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ [طه: ٥٩].

وكان يوم عيد لهم من أعيادهم، مجتمع لهم: ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٩].

أي في أول النهار، في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلا، بل طلب أن يكون نهارا جهرة، لأنه على بصيرة من ربه ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

يوم الزينة

يقول الله تعالى في سورة طه:

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه: ٦٠ - ٦٤].

يخبر الله تعالى أن فرعون ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء، في فنهم غاية، فجمعوا قيل: ثمانين ألفا، وقيل: سبعين ألفا، و قيل بضعة وثلاثين ألفا.

وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفا، وقال كعب الأحبار: كانوا اثنى عشر ألفا.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته، وأهل بلده عن بكرة أبيهم، وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم، وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل الذى فيه معارضة لآيات الله.

ولما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون تجاههم، قالوا: إما أن تلقى قبلنا وإما أن نكون قبلك، قال: بل ألقوا، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى، فأودعوها الزئبق وألقوها

فخيل للناس أنها حيات تسعى، فخاف موسى، وقال الله له: لا تخف، ألق ما في يمينك فألقى، فإذا هي تلقف ما يأفكون: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٢]، قال فرعون: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١]، فرد السحرة على فرعون وقالوا: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

قال عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) وعبيد بن عمير: (كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخره شهداء بررة).

عذاب الله لفرعون وقومه

قال محمد بن إسحاق:

(فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلولا، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادى فى الشر، فتابع الله عليه بالآيات فأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، وكان الطوفان - وهو الماء - ففاض على وجه الأرض ثم ركضه لا يقدرون على أن يحرثوا، ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا).

فلما بلغهم ذلك قالوا:

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

فدعا موسى ربه فكشفه عنهم، فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا، أرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر فيما بلغنى، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم،

فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، وتوالت الدعوات من موسى ، فلم يفوا فأرسل الله عليهم الضفادع ، ثم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دما ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء ، إلا عاد دما عبيطا .

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) ومجاهد وعكرمة والشعبى وقتادة: الآيات السبع هى: العصا ، واليد ، والسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

هلاك فرعون

يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس: ٨٨ - ٨٩] .

هذه دعوة عظيمة ، دعا بها كليم الله موسى ، على عدو الله فرعون ، غضبا لله عليه ، لتكبره عن اتباع الحق ، وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده ، واستمراره على الباطل ، ومكابرته الحق الواضح الجلى ، الحسى والمعنوى ، والبرهان القطعى ، ربنا آتيته زينة الأموال من اللباس والمراكب الحسنة الهيئة والدور الأنيقة ، والمآكل الشهية ، والمناظر البهية ، والجاه العريض فى الدنيا ، ربنا اطمس على أموالهم .

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) ومجاهد: أى أهلكها .

وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت .

وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم صارت حجارة .

وقال محمد بن كعب: جعل سكرهم حجارة .

قال المفسرون: استأذن موسى من فرعون أن يخرج ببنى إسرائيل إلى عيد لهم ، فأذن لهم

وهو كاره ، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا لـه ، وإنما كان فى نفس الأرض مكيدة بفرعون وجنوده ، ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم .

وذكـر أهل الكتاب: أن بنى إسرائيل طلبوا من القبط أن يعيروهم حليا منهم فأعاروهم فخـرجوا بليل فساروا طالبين بلاد الشام ، فلما علم فرعون بذهابهم حنق عليهم وشرع فى جمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم .

فلمـا ركـب فرعون فى جنوده طالبا بنى إسرائيل ، حتى قيل: كان فى خيوله مائة ألف فحل أدهم ، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف ، والله أعلم .

وقيل: إن بنى إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية .

والمقـصود: أن فـرعون لحقهـم بالجـنود ، فـأدركهم عـند شـروق الـشمس ، وتـراءى الجمعـان وعـاين كـل مـن الفـريقين صـاحبه ، ولم يـبق إلا المقاتلـة والمجادلـة ، فعـندها قال أصـحاب موسـى وهـم خائفـون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الـشعراء: ٦١] ، وذلـك لأنهـم اضـطروا فـى طـريقهم إلى البحـر ، فلـيس لهـم طـريق إلا سـلوكه وخوضـه وهـذا مـا لا يـستطيعه أحـد ولا يقـدر علـيه ، والجـبال عـن يسارهم وعـن يمينهم وهـى عالية شاهقة ، وفرعون قـد لحقهـم وواجههـم ، وعايـنوه فـى جـنوده وجيوشـه وعـددهم وعـدتهم ، وهـم خائفون .

فـشكوا إلى نبـى الله مـا هـم فـيه ممـا قـد شـاهدوه وعاينوه ، فقال لهم موسى الصادق المـصدوق ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الـشعراء: ٦٢] وكان فى الساقة ، فتقدم إلى المقدمة ، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه وهو يقول: ها هنا أمرت ، ومعه أخوه هارون ، ويوشع ابن نون وهو يومئذ من سادات بنى إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار .

فلمـا تفـاقم الأمر وضاق الحال ، واقترب فرعون بجنوده إليهم ، عندئذ أوحى الله تعالى إلى موسـى الكلـيم: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الـشعراء: ٦٣] فلما ضربه ، قال: انفلق بإذن الله ويقال: إنه انفلق اثنى عشر طريقا ، لكل سبط طريق يسيرون فيه .

وأمر الله ريح الدبور فلفحت طين البحر فأذهبته ، حتى صار يابسا لا يعلق فى سنابك

الخيول والدواب، فانحدروا مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا قدرة الله فهدأت واطمأنت قلوبهم.

وذكر المفسرون أن جبريل عليه السلام ظهر في صورة فارس راكب على فرس لم تلقح، فمر بين يدى فحل فرعون، فحمحم إليها وأقبل عليها، وأسرع جبريل فاقتحم البحر واستبق الجوار، فبادر مسرعا، فلما رأته الجنود قد سلك البحر، اقتحموا وراءه مسرعين فأصبحوا في البحر جميعهم بعددهم وعدتهم، حتى أولهم هم بالخروج.

عندئذ أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فارتطم عليه كما كان وغرقوا جميعا ولم ينج منهم أحدا.

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) قال رسول الله ﷺ: «**قال لى جبريل: لو رأيتنى وأنا آخذ من البحر فأدسه فى فم فرعون مخافة أن تناله الرحمة**».

لأنه قال عندما غرق جميع جنده، قال: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل، وكان هلاك فرعون وجنوده فى يوم عاشوراء، اليوم العاشر من محرم.

قارون عبيد المال

يقول الله تعالى فى سورة القصص:

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٧٦ - ٨١].

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: إن قارون ابن عم موسى، وقال مالك بن دينار وابن جريج وزاد فقال: هو قارون بن يصهب بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث.

وقد ذكر الله كثرة كنوزه، حتى أن مفاتحه كان يثقل حملها على الجماعة من الناس، وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: لا تفرح، ولتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله فى الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال.

فما كان جوابه لقومه إلا أن قال: إنما أوتيته على علم عندى، ولا أحتاج لنصحكم، ونسى هذا الجاحد أن الله قد أهلك من الأمم الماضية من هو أشد منه وأكثر أموالا منه.

فخرج على قومه فى أبهى صورة من ملابس ومراكب وخدم وحشم، حتى أن الذين يريدون الحياة الدنيا قالوا: يا ليت لنا من هذه العظمة مثل قارون، وقال الذين يريدون ثواب الآخرة، ثواب الله أعظم وأبقى.

وقال بعض السلف: (إن الله يحب البصر النافذ عن ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات).

ولقد ورد فى صحيح البخارى، عن جرير بن زيد، عن سالم، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال: «**بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة**».

وعن السدى وابن عباس (رضى الله عنهما) قال: (إن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تقول لموسى عليه السلام وهو فى ملأ من الناس: إنك فعلت بى كذا وكذا، فيقال أنها قالت له ذلك، فأرعد من العرق وصلى ركعتين ثم أقبل عليها، فاستحلفها من ذلك على ذلك، وما حملك عليه، فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك، واستغفرت الله وتابت إليه، فعند ذلك خر موسى لله ساجدا، ودعا على قارون، فأوحى الله إليه أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر

موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك ، والله أعلم) .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٨١] لظلمه وتعاليه وتكبره وعدم الاعتراف بنعم الله ولم يكن له ناصر لا من نفسه ولا من غيره ، وندم الذين تمنوا مثل ما عنده ، والله خير وأبقى .

واحذر من المال

لقد روى البيهقي والطبراني عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم»** .

وروى الترمذي والحاكم ، عن كعب بن رياض (رضى الله عنه) ، قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن لكل أمة فتنة ، وإن فتنة أمتي المال»** .

قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): (احذروا المال فإنه له ضراوة كضراوة الخمر) .

* * *

الفصل الثالث

ابتلاءات أمة الإسلام

الخـــوف

يقـــول الله تعـــالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥] .

وفى سورة الأنعام:

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٨] .

وفى سورة يونس:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس: ٦٢] .

وفى سورة الزخرف:

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٨] .

وفى سورة الأحقاف:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٣] .

الخوف: هو ابتلاء من الله تعالى، وهو سوط الله الذى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى، والخوف له قصور وإفراط وله اعتدال.

فالخوف القاصر: هو الذى يجرى مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من آيات القرآن الكريم، فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل.

فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر، قليل الجدوى ضعيف النفع، كالعصا الضعيفة التى تضرب بها الدابة القوية، فلا تؤلمها العصا

ولا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خوف الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء.

ولذلك قال الفضيل بن عياض (رحمه الله): إذا قيل لك: هل تخاف الله فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، كذبت، وأشار به أن الخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى، ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر فى الجوارح، فهو حديث نفس وحركة خاطر، لا يستحق أن يسمى خوفا.

أما الخوف المفرط: فإنه هو الذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال، حتى يخرج الشخص إلى اليأس والقنوط، وهذا خوف مذموم، قد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل، فالمراد من الخوف هو ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل.

وأما خوف العجز: فهو متعرض لمحذور، لا يقدر على دفعه، فإذن هو خوف محمود بالإضافة إلى نقص الآدمى، وإنما المحمود فى نفسه وذاته: هو العلم والقدرة، مثل الصبر على ألم الدواء (وهو محمود) لأنه أهون من ألم المرض والموت.

فكل ما يراد الأمر، فالمحمود منه، ما يفضى إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه فهو مذموم.

وفائدة الخوف: الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر، وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل.

أقسام الخوف

الخوف قسمان:

خوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، مكروه يكون مكروها فى ذاته كالنار، وخوف من مكروه يؤدى إلى مكروه، كما تكره المعاصى التى تؤدى إلى العذاب فى الآخرة، وأيضا تكره الفواكه المضرة، لأنها تؤدى إلى الموت.

فالقسم الأول من الخائفين الذين يتمثل فى أنفسهم الخوف من المكروه، مثل سكرات

الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر ، أو هيبة الموقف بين يدى الله تعالى ، والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير ، أو الخوف من الصراط وحدته ، وكيفية العبور عليه ، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها ، أو الخوف من الحرمان من الجنة دار النعيم ، والملك المقيم ، وعن نقصان الدرجات ، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى ، وكل هذه الأسباب مكروهة فى نفسها فهى مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها .

وأعلاها رتبة: هو خوف الفراق والحجاب من الله تعالى ، وهو خوف العارفين العاملين الصالحين والزاهدين ، وكفة العالمين الذين يشعرون بلذة الوصال ، والقرب من الله .

أما القسم الثانى من الخائفين: وهو الخوف من مكروه يؤدى إلى مكروه آخر ، كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء ، أو خوف ما لا يدرى أنه يحدث فى بقية عمره ، أو خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا ، أو خوف اطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه ، أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أو خوف السابقة التى سبقت له فى الأزل .

فهذه كلها مخاوف ، ولكل واحد خصوص فائدة ، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف ، فمن يخاف استيلاء العادة عليه ، فيواظب على البعد عن العادة ، والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته ، يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس .

فضيلة الخوف:

الخوف له فوائد عدة بينها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة وفى الآثار والأخبار ، وهى كالآتى بيانه:

١ – فى القرآن الكريم:

فى سورة الأعراف: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٤] .

فى سورة فاطر: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

فى سورة البينة: ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة: ٨] .

وفى سورة الأعلى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعلى: ٩ – ١٠] .

وفى سورة الرحمن: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٦] .

وفى سورة السجدة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة: ١٦] .

٢ – الخوف فى الأحاديث النبوية:

١ – أخرج ابن حبان فى صحيحه، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «**قال الله عز وجل: وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين، ولا أجمع له أمنين، فإن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة**» .

٢ – روى الترمذى وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قالت عائشة (رضى الله عنها) قلت: يا رسول الله ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، هو الرجل يسرق ويزنى، قال: «**لا، بل الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ألاَّ يقبل منه**» .

٣ – أخرج الترمذى وقال: حسن صحيح، والنسائى، وابن ماجه عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى، حتى**

يعود اللبن فى الضرع» .

٤ - أخرج الترمذى وقال: حسن غريب ، عن أبى أمامة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «**ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهريقت فى سبيل الله سبحانه وتعالى**» .

٥ - روى البخارى ومسلم ، عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله .

٦ - روى أحمد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين ، عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ سأل جبريل: ما لى لا أرى ميكائيل يضحك ، فقال جبريل: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار .

٣ - الخوف فى الآثار والأخبار:

قيل للحسن (رضى الله عنه): يا أبا سعيد ، كيف نصنع ، نجالس أقواما يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ، فقال: والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف .

وقال أبو الحسين الضرير (رحمه الله): علامة السعادة خوف الشقاوة ، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين .

وقال أبو بكر الصديق (رضى الله عنه): من استطاع أن يبكى فليبك ، ومن لم يستطع فليتباك .

وكان محمد بن المنكدر (رحمه الله) إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ، ويقول: بلغنى أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع .

وقال كعب الأحبار (رحمه الله): والذى نفسى بيده ، لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى ، أحب إلىّ من أن أتصدق بجبل من ذهب .

وروى عن حنظلة (رضى الله عنه) قال: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة، رقت لها القلوب، وذرفت منها العيون، وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلى، فدنت منى المرأة، وجرى بيننا من حديث الدنيا، فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ وأخذنا فى الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه، فقلت فى نفسى: قد نافقت حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرقة، فخرجت وجعلت أنادى: نافق حنظلة.

فاستقبلنى أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) فقال: كلا لم ينافق حنظلة، فدخلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول: نافق حنظلة، فقال رسول الله ﷺ: «**كلا لم ينافق حنظلة**»، فقلت يا رسول الله، كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلى، فأخذنا فى حديث الدنيا، ونسيت ما كان عندك عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**يا حنظلة لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة، لصافحتكم الملائكة فى الطريق، وعلى فرشكم، ولكن يا حنظلة: ساعة وساعة**».

أحوال الملائكة والأنبياء الصالحين من الخوف

جبريل يتضاءل:

أخرج البيهقى فى الشعب، والطبرانى فى الكبير، وأبو الشيخ عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: (بينما رسول الله ﷺ ومعه جبريل يناجيه، إذ انشق أفق السماء، فأقبل جبريل يتضاءل ويدخل بعضه فى بعض ويدنو من الأرض، فإذا ملك، قد مثل بين يدى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إن ربك يقرئك السلام ويخيرك بين أن تكون نبيا ملكا، أو نبيا عبدا، قال رسول الله ﷺ: فأشار جبريل إلىّ بيده، أن تواضع، فعرفت أنه لى ناصح فقلت: عبدا نبيا، فعرج ذلك الملك إلى السماء، فقلت: يا جبريل، قد كنت أردت أن أسألك عن هذا، فرأيت من حالتك ما شغلنى عن المسألة، فمن هذا يا جبريل، قال: هذا إسرافيل، خلقه الله يوم خلقه بين يديه، صافا قدميه، لا يرفع طرفه بينه وبين الرب سبعون نورا، ما منها نور يدنو منه إلا احترق، بين يديه اللوح المحفوظ، فإذا أذن الله بشىء فى السماء أو فى الأرض ارتفع ذلك اللوح، فضرب جبهته فينظر فيه، فإن كان من عملى أمرنى به، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به.

قلت: يا جبريل، على أى شىء أنت، قال: على الرياح والجنود، قلت: وعلى أى شىء ميكائيل، قال: على النبات والقطر، قلت: وعلى أى شىء ملك الموت، قال: على قبض الأنفس، وما ظننت أنه هبط إلا بقيام الساعة، وما ذاك الذى رأيت منى إلا خوفا من قيام الساعة).

انظر مجمع الزوائد للهيثمى، وقال الهيثمى: فيه محمد بن أبى ليلى، وقد وثقه جماعة، ولكنه سيئ الحفظ وبقية رجاله ثقات.

بكاء داود عليه السلام

قال مجاهد (رحمه الله): (بكى داود عليه السلام أربعين يوما، ساجدا لا يرفع رأسه، حتى نبت المرعى من دموعه، وحتى غطى رأسه، فنودى: يا داود، أجائع أنت فتطعم، أم ظمآن فتسقى، أم عار فتكسى، فنحب نحبة، هاج العود فاحترق من حر جوفه ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة، فقال: يا رب اجعل خطيئتى فى كفى، فصارت خطيئته فى كفه مكتوبة، فكان لا يبسط كفه لطعام أو لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته، قال: وكان يؤتى بالقدح ثلثاه، فإذا تناوله أبصر خطيئته، فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه).

وقال الفضيل (رحمه الله): (بلغنى أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم، فوثب صارخا واضعا يده على رأسه، حتى لحق بالجبال، فاجتمعت إليه السباع فقال: ارجعوا لا أريدكم، إنما أريد كل بكاء على خطيئته، فلا يستقبلنى إلا البكاء، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء).

وقال عيسى عليه السلام:

(معاشر الحواريين: خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا، بحق أقول لكم: إن أكل الشعير، والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل).

وروى أن أبا بكر الصديق (رضى الله عنه) قال لطائر: ليتنى مثلك يا طائر ولم

أخلق بشرا .

وقال أبو ذر الغفارى (رضى الله عنه): وددت لو أنى شجرة تعضد ، وكذلك قال طلحة .

وقال عثمان بن عفان (رضى الله عنه): وددت أنى إذا مت لم أبعث .

وقالت عائشة (رضى الله عنها): وددت أنى كنت نسيا منسيا .

وقال عمران بن حصين (رضى الله عنه): وددت أن أكون رمادا تنسفنى الرياح فى يوم عاصف .

خوف عمر بن الخطاب رضى الله عنه

روى أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه ، فكان يعاد أياما ، وأخذ يوما نبتة من الأرض فقال: يا ليتنى كنت هذه النبتة ، يا ليتنى لم أك شيئا مذكورا ، يا ليتنى كنت نسيا منسيا ، يا ليتنى لم تلدنى أمى) وكان فى وجه عمر (رضى الله عنه) خطان أسودان من الدموع .

وقال رضى الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون .

ولما قرأ عمر من سورة التكوير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ [التكوير: ١ - ١٠] .

فلما قرأ هذه الآيات خر مغشيا عليه .

خوف على بن أبى طالب كرم الله وجهه

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقد سلّم من صلاة الفجر ، وقد علاه كآبة وهو يقلب يده: لقد رأيت أصحاب محمد فلم أر اليوم شيئا يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثا صفرا غبرا ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجدا وقياما ، يتلون كتاب

الله يـراوحون بـين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله ، فمادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع ، حتى تبل ثيابهم ، والله فكأنى بالقوم باتوا غافلين ، ثم قام ، فما رئى بعد ذلك ضاحكا ، حتى ضربه ابن ملجم) .

وقال مالك بن دينار:

(بينما أطوف بالبيت ، إذا أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول: رب ، كم شهوة ذهبت لذاتها ، وبقيت تبعاتها . . يا رب: أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار ، وتبكى ، فمـازال ذلـك مقامهـا ، حتـى طلع الفجر ، قال مالك: فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسى صارخا أقول: ثكلت مالكا أمه) .

وسـئل ابـن عـباس (رضـى الله عـنهما) عـن الخائفين ، فقال: قلوبهم بالخوف فرحة ، وأعينهم باكـية ، يقولـون: كيف نفرح والموت من ورائنا ، والقبر أمامنا ، والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله ربنا وموقفنا .

الفقر والجوع

وردت فى كتاب الله كلمات الفقر والجوع فى مواضع قليلة نذكر منها الآتى:

فى سورة النحل: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل: ١١٢] .

وفـى سـورة قريش: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش: ٣ - ٤] .

وفـى سورة البقرة: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥] .

وفى سورة البقرة: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٨] .

وفى سورة الحج: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج: ٢٨] .

وفى سورة آل عمران: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨١] .

فالفقر بلاء من الله تعالى لعباده ، وهو عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه الإنسان ، وفى الحقيقة المطلقة ، نحن جميعا فقراء والله هو الغنى ؛ لقوله تعالى فى سورة محمد: ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨] .

والفقر له خمسة أحوال ، نميزها ونخصص كل حال باسم ، لنتوصل بالتمييز إلى ذكر كل حالة:

الحالة رقم ١ - وهى الحالة العليا ، أن يكون الإنسان لو أتاه المال لكرهه ، وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ، محترزا من شره ، واسم صاحبه الزاهد .

الحالة رقم ٢ - أن يكون الإنسان لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ، ويزهد فيه لو أتاه ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا .

الحالة رقم ٣ - أن يكون وجود المال ، أحب إليه من عدمه ، لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوًا وعفوًا أخذه وإن افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا .

الحالة رقم ٤ - أن يكون ترك طلب المال لعجز الإنسان ، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص .

الحالة رقم ٥ - أن يكون ما فقده الإنسان من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز ، والعارى الفاقد للثوب ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا .

فضيلة الفقر

فى القرآن الكريم:

فى سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

وفى سورة النور: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: ٣٢].

وفى سورة البقرة: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفى سورة النساء: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

وفى سورة القصص: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤].

فضل الفقر فى الأحاديث النبوية:

١ - أخرج الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام**».

٢ - أخرج الترمذى أيضا عن رسول الله ﷺ قال: «**من أصبح منكم معافى فى جسده. آمنا فى سربه. عنده قوت يومه. فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**».

٣ - عن خباب وسلمان (رضى الله عنهما) قال: (لما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبى ﷺ: اجعل لنا يوما، ولهم يوما يجيئون إليك ولا نجىء، ونجىء إليك ولا يجيئون، يعنون بذلك الفقراء مثل: بلال، وسلمان، وصهيب، وأبى

ذر، وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر، وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء (رضى الله عنهم جميعا)، أجابهم النبى ﷺ إلى ذلك، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برائحتهم، وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر، فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم، فاشتد ذلك على الأغنياء منهم: الأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصن الفزارى، وعباس بن مرداس السلمى، وغيرهم، فأجابهم رسول الله ﷺ ألاَّ يجمعهم وإياهم مجلس واحد، فنزل عليه قوله تعالى:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨ - ٢٩].

٤ - أخرج الترمذى وقال: غريب، قلت: ورجاله رجال الصحيح عن عائشة (رضى الله عنها).

استأذن ابن أم مكتوم على النبى ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش، فشق ذلك على النبى ﷺ فأنزل الله تعالى:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [عبس: ١ - ٦]، يعنى هذا الشريف.

٥ - وروى مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «**طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به**».

٦ - أخرج النسائى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) متصلا، وعن زيد بن أسلم (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم**»، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها، وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف**».

فضيلة الفقر فى الأخبار

١ - قال عمران بن حصين:

(كانت لى من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال: «**يا عمران، إن لك عندنا منزلة وجاها، فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله**»، قلت: نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله، فقام وقمت معه، حتى وقف بباب فاطمة، فقرع الباب، وقال: «**السلام عليكم أأدخل؟**»، فقالت: ادخل يا رسول الله، قال: «**أنا ومن معى**»، قالت: ومن معك يا رسول الله، قال: «**عمران**» فقالت فاطمة: والذى بعثك بالحق نبيا ما علىّ إلا عباءة، قال: «**اصنعى بها هكذا وهكذا**»، وأشار بيده، فقالت: هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى، فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة، فقال: «**شدى على رأسك**» ثم أذنت له فدخل فقال: السلام عليكم يا بنتاه، كيف أصبحت، قالت: أصبحت والله وجعة، وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله، فقد أضرَّبى الجوع، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «**لا تجزعى يا ابنتاه، فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث، وإنى لأكرم على الله منك ولو سألت ربى لأطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا**»، ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها: «**أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة**»، قالت: فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، قال: «**آسية سيدة نساء عالمها، ومريم سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، إنكن فى بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب**»، ثم قال لها: «**اقنعى بابن عمك، لقد زوجتك سيدا فى الدنيا وسيدا فى الآخرة**».

٢ - وقال أبو هريرة (رضى الله عنه):

ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له: أيها تريد.

٣ - وقال بعض الحكماء:

(مسكين ابن آدم، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا، ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعا، ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعا).

٤ - إبراهيم بن أدهم:

كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل فى فناء القصر وفى يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئنى به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل، أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال: نعم، قال: فشبعت؟ قال: نعم، قال: ثم نمت طيبا؟ قال: نعم، فقال إبراهيم فى نفسه: فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر؟

٥ - وقال أبو الدرداء (رضى الله عنه):

(ما من أحد إلا وفى عقله نقص، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا، والليل والنهار دائبان فى هدم عمره، ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص).

٦ - يزيد بن أسلم (رحمه الله):

روى يزيد بن أسلم عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: (بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنى رسول الفقراء إليك، فقال: «**مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم الله**»، قال: قالوا: يا رسول الله، إن الأغنياء ذهبوا بالخير كله، يحجون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم.

فقال النبى ﷺ: «**بلّغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال، ليست للأغنياء، أما خصلة واحدة فإن فى الجنة غرفا ينظر إليها أهل الجنة كما**

ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا نبى فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير ، والثانية: يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة: إذا قال الغنى: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ، ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم ، وذلك أعمال البر كلها» .

فرجع إليهم وأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ فقالوا: رضينا رضينا .

آداب الفقير:

الفقر بلاء ، والبلاء من الله ، ويجب على الفقير أن يتحلى بآداب فى باطنه وظاهره وأعماله وأفعاله .

فى باطنه:

يجب على الفقير ألاَّ يكره البلاء الذى ابتلاه الله به ، وأن يتقبل أمر الله راضيا مرضيا وإن كان كارها للفقر ، كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها ، ولا يكون كارها فعل الحجام ولا كارها للحجام ، وذلك معنى قول الرسول ﷺ : «**يا معشر الفقراء ، أعطوا الله الرضا من قلوبكم ، تظفروا بثواب فقركم ، وإلا فلا**» .

وقال على بن أبى طالب (كرم الله وجهه): إن لله تعالى عقوبات بالفقر ، ومثوبات بالفقر فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ، ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علامات الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه بترك طاعته ، ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء .

وفى ظاهره:

يجب على الفقير أن يظهر التعفف والتجمل ، ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ، ويستر أنه يستره ، فقد قال رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال**» .

وقال الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا

يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة: ٢٧٣] .

في أعماله:

ويجب على الفقير ألاَّ يتواضع لغنى لأجل غناه ، بل يتكبر عليه ، وقال على بن أبى طالب: (ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل) ، ويجب على الفقير ألاَّ يخالط الأغنياء .

وقال الثورى رحمه الله: (إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه رياء ، وإذا خالط الفقير السلطان فاعلم أنه لص) .

وفى أفعاله:

يجب على الفقير ألاَّ يكسل عن عبادة ربه ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه ، فإن ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى ، وأن يقبل الهدية فإن قبولها سنة نبوية .

* * *

الفصل الرابع
المرض والأوجاع

المرض: هو ابتلاء من الله لعباده، جعله الله فى الدنيا لمحو الذنوب، وتخفيف المعاصى التى ارتكبها الإنسان فى حياته، وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر المرض ومشتقاته فى أربعة وعشرين موضعا، نذكر منها على سبيل المثال ما يلى:

فى سورة البقرة: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٠].

وفى سورة التوبة: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وفى سورة النور: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١].

وفى سورة البقرة: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وفى سورة الشعراء: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وفى سورة المزمل: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

والمرض نوعان:

١ - مرض القلوب.　　٢ - مرض الأبدان.

وهما مذكوران فى القرآن الكريم.

ومرض القلوب: نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة.

يقول الله تعالى فى مرض الشبهة: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر: ٣١].

أى شكوا فى أمثلة الله عليهم اللعنة.

ويقول تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور: ٥٠].

أما مرض الشهوة والزنى قوله تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

أما مرض الأبدان: ذكره الله تعالى في القرآن الكريم في سورة النور: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١].

أي مرض البدن في الحج، والصوم، والوضوء، وجمع الله هذه المواضع الثلاثة في قوله: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فأباح الفطر للمريض وللمسافر، طلبا لحفظ صحته وقوته لئلا يذهبها الصوم في السفر لاجتماع شدة الحركة، وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف.

وفي الحج يقول الله تعالى في سورة البقرة:

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه من قمل أو حكة أو غيرها، أن يحلق رأسه في الإحرام، استفراغا لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه تفتحت المسام فخرجت تلك الأبخرة منها، فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسه، مثل انحباس البول والغائط والريح والقيء والعطاس، والنوم والجوع والعطش.

فضائل المرض

١- روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «**من يرد الله به خيرا يصب منه**».

٢- وروى البخارى ومسلم أيضا عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**» .

٣- وروى البخارى عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك ، فقلت: يا رسول الله ، إنك توعك وعكا شديدا ، قال: «**أجل ، إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم**» ، قلت: ذلك أن لك أجرين ، قال: «**أجل ذلك كذلك ، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها**» .

٤- وروى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «**مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع ، من حيث أتتها الريح كفأتها ، فإذا اعتدلت تكفا بالبلاء ، والفاجر كالأرزة ، صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء**» .

٥- وروى مسلم عن صهيب بن سنان (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**» .

٦- وروى البخارى عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الله تعالى قال: إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة**» ، يريد عينيه .

٧- روى البخارى ومسلم عن عطاء بن رباح ، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فقلت: بلى ، فقال: هذه المرأة السوداء ، أتت النبى ﷺ فقالت: إنى أصرع ، وإنى أتكشف ، فاع الله تعالى لى ، فقال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك**» ، فقالت: أصبر ، ثم قالت: إنى أتكشف فادع الله تعالى لى ألاَّ أتكشف فدعا لها .

٨- روى البخارى عن أبى موسى الأشعرى (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «إذا

مرض العبد أو سافر كتب لـــه مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا» .

٩- أخـرج ابـن أبـى الدنـيا مـن حديث أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) بإسناد فيه لين ، أن رجلا قال: يا رسول الله ، ذهب مالى وسقم جسمى فقال ﷺ : «**لا خير فى عـــبد لا يـــذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبّره**» .

١٠- روى أبـو داود عن محمد بن خالد السلمى ، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الرجل لتكون لـــه الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك**» .

١١- وروى أنـه لمـا نـزل قـول الله تعـالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] ، قال أبو بكر الصديق (رضى الله عنه): كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله ﷺ : «**غفـــر الله لك يا أبا بكر ، ألست تمرض ، أليس يصيبك الأذى ، ألست تحزن ، فهذا مما تجزون به**» .

١٢- وقال حاتم الأصم (رحمه الله): إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفـس علـى أربعـة أجناس ، يحتج على الأغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بالمسيح ، وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى بأيوب ، صلوات الله وسلامه عليهم جميعا .

أسباب الأمراض والأوجاع

لقـد خلـق الله الأمـراض والأوجـاع لحكـم جليلة وعظـيمة يوضحها الرسول ﷺ فى الأحاديث النبوية الشريفة ، نذكر منها ما يلى:

١ - ردا على شكوى ملك الموت:

أخـرج المروزى فى الجنائز ، وابن أبى الدنيا ، وأبو الشيخ فى العظمة ، عن أبى الشعثاء جابـر بن زيد (رضى الله عنه): أن ملك الموت كان يقبض الأرواح بغير وجع ، فسبه الناس ولعـنوه ، فـشكى إلى ربه ، فوضع الله الأوجاع ، ونسى ملك الموت ، يقال: مات فلان بكذا وكذا .

٢ – إلغاء نصيب المؤمن من النار:

عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن رسول الله ﷺ أنه عاد مريضا ومعه أبو هريرة من وعك كان به، فقال له رسول الله ﷺ: «**أبشر إن الله يقول: هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن فى الدنيا؛ ليكون حظه من النار فى الآخرة**»، صحيح الجامع للألبانى رقم (٥٥٧).

٣ – إلغاء خطايا المسلم:

عن أم العلاء، قالت: عادنى رسول الله ﷺ وأنا مريضة، فقال: «**أبشرى يا أم العلاء، فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه، كما تذهب النار خبث الذهب والفضة**» صحيح الجامع للألبانى (٧١٤).

٤ – شهادة أمتى ورحمة الله لهم:

عن أبى عسيب مولى رسول الله ﷺ مرفوعا، قال: «**أتانى جبريل بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة، وأرسلت الطاعون إلى الشام، فالطاعون شهادة لأمتى ورحمة لهم ورجس على الكافرين**».

٥ – تخليص خطايا المؤمن فى الدنيا، وتعويض ما فعله الفاسق من حسنات:

يقول الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى: «**وعزتى وجلالى لا أخرج عبدا من الدنيا، وأريد أن أرحمه، حتى أنقيه من كل خطيئة عملها بضيق فى رزقه، أو بسقم فى جسده، فإن بقى منها شىء، شددت عليه الموت حتى يلقانى ما عليه خطيئة فأجازيه بحسناته، وعزتى وجلالى لا أخرج عبدا من الدنيا، وأريد أن أعذبه، حتى أوفيه على كل حسنة عملها بسعة فى رزقه، أو صحة فى جسده، فإن بقى منها شىء، هونت عليه الموت حتى يلقانى ما له عندى من حسنة، فأعذبه بسيئاته**».

٦ – حث الصالحين على الصبر فى الأوجاع:

عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: إن رسول الله ﷺ طرقه وجع، فجعل يشتكى ويتقلب على فراشه، فقالت عائشة: لو صنع هذا بعضنا لوجدت عليه، فقال ﷺ: «**إن**

الصالحين يشدد عليهم ، وإنه لا يصيب مؤمنا نكبة من شوكة فما فوق ذلك إلا حطت بها عنه خطيئة ، ورفع بها درجة» ، صحيح الجامع للألبانى (١٦١٠) .

٧ - جعل الله قيود المريض لغفران ذنوبه:

عن أبى أمامة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن العبد إذا مرض ، أوحى الله إلى ملائكته: يا ملائكتى، أنا قيدت عبدى بقيد من قيودى فإن أقبضه أغفر له ، وإن أعافه فحينئذ يقعد ولا ذنب له»** ، صحيح الجامع للألبانى (١٦١١) .

٨ - جعلت عدم شكوى عبدى ، أبدل لحمه ودمه:

عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدى المؤمن ، ولم يشكنى إلى عواده ، أطلقته من أسارى ، ثم أبدلته لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، ثم يستأنف العمل»** صحيح الجامع للألبانى (٢٧٢) .

عيادة المريض

من آداب الإسلام أن يعود المسلم أخاه المريض ، ويتفقد حاله تطييباً لنفسه ووفاء بحقه ، ومشاركة فى زوال همه وغمه وحزنه ، ولقد قال ابن عباس (رضى الله عنهما): عيادة المريض أول يوم سُنّة ، وبعد ذلك تطوعا .

وروى البخارى ومسلم ، قال ﷺ : **«حق المسلم على المسلم ست»** قيل: ما هن يا رسول الله ، قال: **«إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه»** .

وروى البخارى عن أبى موسى الأشعرى ، أن النبى ﷺ قال: **«إذا مرض العبد أو سافر ، كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا»** .

وروى البخارى عن أبى موسى الأشعرى ، أن النبى ﷺ قال: **«أطعموا الجائع ، وعودوا المريض ، وفكوا العانى»** أى: فكوا الأسير .

وروى ابن ماجه عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«من عاد**

مريضا ، نادى مناد من السماء: طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منـــزلا» .

وروى مسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يقـــول يـــوم القيامة: يا بن آدم مرضت فلم تعدنى ، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال: أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عـــنده ؟ يـــا بن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ، قال: يا رب ، كيف أطعمك وأنت رب العـــالمين ؟ قـــال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان ، فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا بن آدم استسقيتك فلم تسقنى ، قال: يا رب كيف أسقيك وأنـــت رب العـــالمين ؟ قال: استسقاك عبدى فلان ، فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى؟**» .

وعن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**ما من مـــسلم يعـــود مسلما غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسى ، وإن عاده عشية صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح ، وكان لـــه خريف فى الجنة**» ، الخريف: هو الثمر المخروف أى المجتبى ، رواه الترمذى وقال: حديث حسن .

وروى ابن ماجه وقال فى الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات ، إلا أنه منقطع عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «**إذا دخلت على مريض ، فمره: فليدع لك ، فإن دعاءه كدعاء الملائكة**» أى فى قرب الاستجابة .

وروى عن عائشة (رضى الله عنها) أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال (رضى الله عنهما) قالت: فدخلت عليهما ، فقلت: يا أبت كيف تجدك ، ويا بلال ، كيف تجدك ، قالت: وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كـــل امـــرئ مـــصبّح فى أهلـــه ::: والمـــوت أدنى مـــن شـــراك نعلـــه

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يقول:

ألا لـــيت شـــعرى هـــل أبيتن ليلة ::: بـــواد وحـــولى إذخـــر وجلـــيل
وهـــل أردن يـــوما مـــياه مجـــنة ::: وهـــل يـــبدون لى شـــامة وطفـــيل

قالت عائشة: فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «**اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم وصححها وبارك لنا فى مدها وصاعها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة**».

روى البخارى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: كان النبى ﷺ يعوذ الحسن والحسين: «**أعيذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة، ويقول: إنا أباكما - يقصد إبراهيم عليه السلام - كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق**».

التداوى

جاءت الشريعة الإسلامية موضحة أن البلاء من الله، وأن المرض بلاء من الله وأن المريض لا يقف مكتوف الأيدى عندما يمرض، بل أوحى الله إلى عبده ورسوله ﷺ أن يا محمد، مر أصحابك وأمتك أن يتوجهوا إلى الله تعالى ويطلبوا الشفاء منه، لأنه عز وجل خلق الداء وخلق له الدواء.

وها هى أحاديث رسول الله ﷺ توضح ما يلى:

١ - روى أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذى عن أسامة بن شريك، قال: أتيت النبى ﷺ وأصحابه كأن على رؤوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من ههنا وههنا، فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى، فقال: «**تداووا، فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد، الهرم**»، أى الموت.

٢ - وروى النسائى وابن ماجه والحاكم وصححه عن أنس (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء فتداووا**».

٣ - وروى مسلم عن جابر (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله**».

٤ - وروى مسلم وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر الحضرمى: أن طارق بن سويد سأل النبى ﷺ عن الخمر يصنعها للدواء، فقال: «**إنها ليست بدواء ولكنها داء**».

فأفاد الحديث حرمة التداوى بالخمر، وأخبر بأنها داء.

٥ - وروى البيهقى وصححه ابن حبان عن أم سلمة ، وذكره البخارى عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «**إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم**» .

٦ - وروى أبو داود ، عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال: «**إن الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداووا ولا تتداووا بحرام**» ، الحديث فى سنده إسماعيل بن عياش وهو ثقة فى الشاميين ، ضعيف فى الحجازيين .

٧ - وروى مسلم وأحمد والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث - يعنى السم .

وقال بعضهم فى المنار:

(إن القطرات القليلة غير الظاهرة (من الخمر أو السم) والتى لا يكون شأنها الإسكار ، إذا اختلطت بالدواء المركب لا تحرم ، مثل القليل من الحرير فى الثوب) والله أعلم .

التداوى بالأدعية

١ - روى البخارى ومسلم عن عائشة (رضى الله عنها) أن النبى ﷺ كان يعوذ بعض أهله ، يمسح بيده اليمنى ، ويقول : «**اللهم رب الناس أذهب البأس ، اشف وأنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقما**» .

٢ - وروى مسلم عن عثمان بن أبى العاص أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعا يجده فى جسده ، فقال له رسول الله ﷺ : «**ضع يدك على الذى يألم من جسدك ، قل: باسم الله ، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته ، من شر ما أجد وأحاذر**» .

فقال: ففعلت ذلك مرارا ، فأذهب الله ما كان بى ، فلم أزل آمر به أهلى وغيرهم .

٣ - وروى الترمذى عن محمد بن سالم قال: قال لى ثابت البنانى: يا محمد إذا اشتكيت ، فضع يدك حتى تشتكى ثم قل: بسم الله ، أعوذ بعزة الله من شر ما أجد من وجعى هذا ، ثم ارفع يدك ، ثم أعد ذلك وترا ، فعن أنس بن مالك (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ حدثه بذلك .

٤ - روى أبو داود والترمذى وقال: حسن ، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخارى ، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن النبى ﷺ قال: «**من عاد مريضا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك ، إلا عافاه الله من ذلك المرض**» .

٥ - وروى مسلم عن سعد بن أبى وقاص: أن رسول الله ﷺ عاده فى مرضه فقال: «**اللهم اشف سعدا ، اللهم اشف سعدا ، اللهم اشف سعدا**» .

التداوى بالرقى

يشرع العلاج بالرقى (جمع رقية) إذا كانت مشتملة على ذكر الله ، وكانت باللفظ العربى المفهوم ، لأن ما لا يفهم لا يؤمن أن يكون فيه شىء من الشرك .

فلقد روى مسلم وأبو داود ، عن عوف بن مالك (رضى الله عنه) قال: كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا: يا رسول الله ، كيف ترى فى ذلك ، فقال: «**أعرضوا علىّ رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**» .

وقال الربيع: سألت الشافعى عن الرقية ، فقال: لا بأس أن ترقى بكتاب الله ، وبما تعرف من ذكر الله ، قلت: أيرقى أهل الكتاب المسلمين ؟ قال: نعم ، إذا رقوا بما يعرف من كتاب الله ، وبذكر الله .

الرقى بفاتحة الكتاب

روى البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) قال:

انطلق نفر من أصحاب النبى ﷺ فى سفرة سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب ، فاستضافوهم ، فأبوا أن يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء ، فلا ينفعه شىء ، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا ، لعلهم أن يكون عند بعضهم شىء .

فأتوهم ، فقالوا: ياأيها الرهط ، إن سيدنا لدغ ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه ، فهل

عند أحد منكم من شيء ، فقال بعضهم: نعم ، والله إنى لأرقى ، ولكن استضفناكم فلم تضيفونا ، فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جعلا فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق يتفل عليه ، ويقرأ: الحمد لله رب العالمين ، فكأنما أنشط من عقال ، فانطلق يمشى وما به من قلبه ، قال: فأوفَوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه ، فقال بعضهم: اقتسموا ، فقال الذى رقى: لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله ﷺ فنذكر له الذى كان ، فننظر ما يأمرنا ، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له ذلك ، فقال: «**وما يدريك أنها رقية**» ، ثم قال: «**قد أصبتم ، اقسموا واضربوا لى معكم سهما**» .

النهى عن التمائم

التميمة: هى الأشياء المكونة من أوراق أو قطع من الثياب تعلق بأى موضع من الجسد بقصد تحبب قلوب الرجال إلى النساء أو العكس ، أو حفظ الجسم من الحسد ، ولقد نهى الرسول ﷺ عن التمائم فى أحاديث كثيرة منها:

١ - فلقد روى أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد وقال من حديث عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قال: «**من علق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علق ودعة فلا أودع الله له**» .

٢ - وروى الحاكم وابن حبان وصححاه عن ابن مسعود (رضى الله عنه) أنه دخل على امرأته ، وفى عنقها شيء معقود ، فجذبه فقطعه ، ثم قال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» قالوا: يا أبا عبد الله ، هذه التمائم والرقى قد عرفناها ، فما التولة: قال: «**شيء يصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن**» .

٣ - روى أحمد عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة أراه ، قال: من صفر (أى نحاس) فقال: «**ويحك ما هذه؟**» ، قال: من الواهنة ، قال: «**أما إنها لا تزيد إلا وهنا ، انبذها عنك ، فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبدا**» .

الواهنة: هى عرق يأخذ فى المنكب ، وفى اليد كلها ، وقيل: مرض يأخذ فى العضد ،

وقد علق الرجل حلقة من نحاس ظنا منه أنها تعصمه من الألم، فنهاه الرسول عنها، وعدها من التمائم.

٤ - وروى أبو داود، عن عيسى بن حمزة قال: دخلت على عبد الله بن حكيم وبه حمرة، فقلت: ألا تعلق تميمة، فقال: نعوذ بالله من ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**من علق شيئا وُكل إليه**».

عذاب الدنيا عند الاحتضار

إن الموت حق على كل كائن حي، والله عز وجل هو المتفرد بالبقاء، إلا أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها، المحب لشهواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذكر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم في سورة الجمعة:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة: ٨].

والناس في هذه الحالة إما منهمك وإما تائب مبتدئ، وإما عارف منته.

أما المنهمك: فلا يذكر الموت، وإن ذكره، فيذكره للتأسف على دنياه، ويشتغل بمذمته، وهذه يزيده ذكر الموت من الله بعدا.

أما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت، لينبعث به من قلبه الخوف والخشية من الله تعالى، فيفي بتمام التوبة والرجوع إلى الله، وربما يكره الموت ويخاف فوت لقاء قصوره وتقصيره، من أن يخطفه الموت قبل تمام التوبة، فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله، إنما يخاف من أن يكون مقصرا أو متأخرا عن التوبة قبل الممات فلا يعد كارها للقاء الله، وعلامة ذلك أنه دائم الاستعداد بالتوبة.

أما العارف: فإنه يذكر الموت دائما، لأنه موعد لقائه بحبيبه، وهذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت، ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين.

ولقد روى عن حذيفة (رحمه الله) أنه لما حضرته الوفاة، قال: حبيب جاء على فاقة، لا

أفلح من ندم ، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليّ من الغنى ، والسقم أحب إلى من الصحة ، والموت أحب إلى من العيش ، فسهّل عليّ الموت حتى ألقاك ، فالتائب معذور فى كراهية الموت ، وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه .

وأعلى مرتبة منهما: من فوض أمره إلى الله تعالى وأصبح فى مقام التسليم والرضا من الله .

أما ما يحدث للإنسان قبل الموت من عذاب فى الدنيا ، وهو الاحتضار ، فعلى المسلم أن يكون عند الموت فى هدوء وسكون من لسانه وأن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى .

أما الصورة: فلقد أخرج الترمذى الحكيم فى نوارد الأصول: من حديث سلمان عن النبى ﷺ أنه قال: «**ارقبوا الميت عند ثلاث ، إذا رشح جبينه ، ودمعت عيناه ، ويبست شفتاه ، فهى رحمة من الله نزلت به ، وإذا غط غطيط المخنوق ، واحمر لونه ، وأزبدت شفتاه، فهو من عذاب الله قد نزل به**» .

ملحوظة: قال المحققون: هذا الحديث لا يصح ، والله أعلى وأعلم .

أما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة: فهى علامة الخير ، قال أبو سعيد الخدرى (رضى الله عنه): قال رسول الله ﷺ : «**لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله**» .

وفى رواية لحذيفة : «**فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا**».

وقال عثمان بن عفان (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**» .

وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): أحضروا موتاكم وذكروهم ، فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم: لا إله إلا الله .

وينبغى للملقن ألاَّ يلح فى التلقين ، ولكن يتلطف ، فربما لا ينطق لسان المريض ، فيشق عليه ذلك ، ويؤدى إلى استثقاله للتلقين وكراهيته للكلمة ، ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة .

وأما حسن الظن: فهو مستحب فى هذا الوقت ، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم إليه والحب يغلب الرجاء ، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وأخرج مسلم من حديث جابر (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى**» .

وأخرج ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع ، والحديث فى الصحيحين ، أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى ما شاء**» .

وروى الترمذى ، وقال: حديث غريب ، ورواه النسائى وابن ماجه ، وقال النووى إسناده جيد ، من حديث أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: دخل النبى ﷺ على رجل وهو فى النزع الأخير ، فقال ﷺ : «**كيف تجدك ؟**» فقال: أجدنى أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي . فقال الرسول ﷺ : «**ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن ، إلا أعطاه الله ما رجا ، وأمّنه مما يخاف**» .

وقال سفيان (رحمه الله): من أذنب ذنبا ، فعلم أن لله تعالى قدرة عليه ، ورجا غفرانه ، غفر الله له ذنبه ، قال: لأن الله عز وجل عيّر قوما فقال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣] .

وقال تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] .

وقال ثابت البناني (رحمه الله): كان شاب به حدة ، وكان له أم تعظه كثيرا ، وتقول له: يا بنى إن لك يوما ، فاذكر يومك ، فلما نزل به أمر الله تعالى ، أكبت عليه أمه ، وجعلت تقول له: يا بنى قد كنت أحذرك مصرعك هذا ، وأقول: إن لك يوما ، فقال يا أماه: إن لى ربا كثير المعروف ، وإنى لأرجو ألاّ يعدمنى اليوم بعض معروفه ، قال ثابت: فرحمه الله بحسن ظنه بربه .

وروى أبو سعيد الخدرى (رضى الله عنه) بإسناد جيد ، قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ، فإن لقنه الله حجته ، قال: يا رب رجوتك وخفت الناس ، قال: فيقول الله تعالى: قد غفرته لك**» .

دواهى الموت

إن كل إنسان قبل فراقه للدنيا، يرى دواهى عظيمة تؤلمه وتعذبه قبل طلوع الروح من جسده، وهذه الدواهى ثلاث هى:

١- شدة النزع للروح التى تتشعب فى كل عرق.

٢- مشاهدة ملك الموت وخوفه منه.

٣- مشاهدة العصاة لموقعهم من النار.

١ - شدة النـــزع:

النزع عبارة عن ألم نزل بنفس الروح، فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن، إلا وقد حل به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنما يجرى فى جزء من الروح، يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء الجسم.

وألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه، فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب، وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل، ومن أصل كل شعرة وبشرة من المفرق إلى القدم.

فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا: إن الموت لأشد من ضرب بالسيف، ونشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض، لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح.

وإنما يستغيث المضروب، ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه، لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه، فهد كل قوة وضعّف كل جارحة، فلم يترك له قوة الاستغاثة.

عندئذ ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة، وتحيط به الحسرة والندامة، ولقد أخرج الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «**تقبل توبة العبد ما لم يغرغر**».

وروى أن نفراً من بنى إسرائيل مروا بمقبرة، فقال: بعضهم لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً تسألون، فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود، قد خرج من قبر من القبور فقال: يا قوم ما أردتم منى، لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة، ما سكنت مرارة الموت من قلبى.

وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث صعمة بن غيلان عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: لا أغبط أحد يهون عليه الموت، بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ.

وروى عنه أنه عليه السلام كان يقول: «**اللهم هون على محمد سكرات الموت**»، ويقول عليه السلام: «**اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل، اللهم فأعنى على الموت وهونه على**».

وأخرج ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية أبى ميسرة وهو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الإسناد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السماوات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى لأن فى كل شعرة الموت، ولا يقع الموت بشىء إلا مات**».

وروى عن موسى عليه السلام: أنه: (لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه: يا موسى كيف وجدت الموت؟ قال: وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقلى، لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير).

وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) لكعب الأحبار: يا كعب، حدثنا عن الموت، فقال: نعم يا أمير المؤمنين: إن الموت كغصن كثير الشوك، أدخل فى جوف رجل، وأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى).

وروى أبو هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: قال النبى ﷺ : **«إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت ، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ، تقول: عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة»** .

٢ - مشاهدة صورة ملك الموت:

عندما يشاهد الإنسان صورة ملك الموت يدخل الروع والخوف على القلب ، فلو رأى صورته التى يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة ، لم يطق رؤيته .

فلقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام ، أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن ترينى صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال: لا تطيق ذلك ، قال: بلى ، قال: فأعرض عنى ، فأعرض عنه ، ثم التفت فإذا هو برجل أسود قاتم الشعر ، منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان ، فغشى على إبراهيم عليه السلام ، ثم أفاق ، وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى ، فقال: يا ملك الموت ، لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه .

وأخرج أحمد بإسناد جيد ، وابن أبى الدنيا فى كتاب الموت ، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ : **«إن داود عليه السلام كان رجلا غيورا ، وكان إذا خرج أغلق الأبواب ، فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هى برجل فى الدار ، فقالت: من أدخل هذا الرجل ؟ لئن جاء داود ليلقن منه عناء ، فجاء داود فرآه ، فقال: من أنت ؟ فقال: أنا الذى لا أهاب الملوك ، ولا يمنع منى الحجاب ، فقال: فأنت والله إذن ملك الموت، وزمل داود عليه السلام مكانه»** .

أما المؤمن المطيع ، فإنه يرى ملك الموت فى أحسن صورة وأجملها .

فلقد روى عكرمة عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا ، وكان له بيت يتعبد فيه ، فإذا خرج أغلقه ، فرجع ذات يوم فإذا برجل فى جوف البيت ، فقال: من أدخلك دارى ؟ فقال: أدخلنيها ربها ، فقال: أنا ربها ، فقال: أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك ، فقال: من أنت من الملائكة ؟ قال: أنا ملك الموت ، قال: هل

تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال: نعم ، فأعرض عنى ، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب ، فذكر من حسن وجهه ، وحسن ثيابه ، وطيب ريحه ، فقال: يا ملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه .

٣ - مشاهدة العصاة ومواضعهم من النار:

الناس فى حالة سكرات الموت قد تخاذلت قواهم ، واستسلمت لخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد التبشيرات: إما أبشر يا عدو الله بالنار ، أو أبشر يا ولى الله بالجنة ، ومن هذا كان خوف أرباب الألباب .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى الموت موقوفا إلى النبى ﷺ قال: «**لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم مصيره ، وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار**» .

وروى البخارى ومسلم من حديث عبادة بن الصامت (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**» ، فقالوا: كلنا نكره الموت ، قال: «**ليس ذاك بذاك ، إن المؤمن إذا فرح له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه**» .

ودخل مروان على أبى هريرة فقال مروان: اللهم خفف عنه ، فقال أبو هريرة: اللهم اشدد ، ثم بكى أبو هريرة ، وقال: والله ما أبكى حزنا على الدنيا ، ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربى بجنة أم بنار .

أخرج ابن أبى الدنيا من حديث تميم الدارى بإسناد ضعيف ، وفى آخره الحديث مرفوعاً للنسائى من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح عن النبى ﷺ قال: «**إن الله إذا رضى عن عبد قال: يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتنى بروحه لأريحه ، حسبى من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب ، فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران ، كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه ، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ ، قال: فيقول له جنوده: ما لك يا سيدنا فيقول: أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة ،**

أين كنتم من هذا ؟ قالوا: قد جهدنا به فكان معصوما» .

وذكر ابن المبارك ، وصاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه عن النبى ﷺ قال: **«العبد المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به وبين أجل قد بقى ، لا يدرى ما الله قاض فيه ، فوالذى نفسى بيده ، ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار»** والله المستعان .

السفر قطعة من العذاب

قالت عائشة (رضى الله عنها): لولا أن الرسول ﷺ قال: **«السفر قطعة من العذاب»** . لقلت: أن العذاب قطعة من السفر .

لأن السفر فيه من المشقة ما فيه ، وقد تكون المشقة جسمانية أو مالية أو عقلية أو تفكيرية ، والمشقة تمنع المسافر طعامه وشرابه ونومه ، فالمسافر الذى ترك أهله وماله ووطنه من أجل هدف ، يملك عليه كل مشاعره وحواسه ، لن يكون متذوقا بسبب هذا لحلاوة أكل أو شرب أو نوم .

ولهذا قال النبى ﷺ فى دعاء له ، بعد أن ودع رجلا مسافرا : **«اللهم ازو له الأرض ، وهون عليه السفر»** .

أخرجه أحمد والنسائى والترمذى وحسنه عن أبى هريرة (رضى الله عنه) .

تعريف السفر:

السفر لغة: قطع المسافة مطلقا ، وشرعا: قطع مسافة تتغير بها الأحكام من قصر الصلاة ، وإباحة الفطر فى رمضان ، وامتداد مدة المسح على الخفين ، وسقوط الجمعة والعيدين والأضحية ، وحرمة الخروج على المرأة الحرة بلا محرم أو زوج .

أقسام السفر:

والسفر ثلاثة أقسام:

١- سفر طاعة: كالحج والجهاد .

٢- وسفر مباح: كالتجارة .

٣- وسفر معصية: كقطع الطريق .

وقسم العلماء (رضى الله عنهم) الذهاب فى الأرض إلى قسمين: هرب ، وطلب .

فسفر الهرب: ينقسم إلى ستة أقسام:

١- سفر الهجرة: وهى الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وكانت فرضا فى أيام النبى ﷺ ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة .

٢- الخروج من أرض البدعة ، قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يسب فيها السلف .

قال ابن العربى: وهذا صحيح ، فإن المنكر ، إذا لم تقدر أن تغيره ، فزل عنه (اتركه) حيث قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٨] .

٣- الخروج من أرض غلب عليها الحرام ، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم .

٤- الفرار من الأذية فى البدن ، وذلك فضل من الله أن رخص فيه ، فإذا خشى على نفسه ، فقد أذن الله له فى الخروج عنه والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور ، وأول من فعله إبراهيم عليه السلام ، فإنه لما خاف من قومه قال: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٦] .

وقال أيضا عز وجل: ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الصافات: ٩٩] .

وقال سبحانه: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص: ٢١] .

٥- خوف المرض فى البلاد التى فيها الوباء إلى البلد التى لا وباء فيها ، وقد أذن النبى ﷺ للرعاة حين استوخموا المدينة إلى المسرح (الفضاء المشبع بالهواء النقى) فيكونوا فيه حتى يصحوا ، واستثنى من بلد الطاعون فلا خروج ولا دخول فيه .

٦- الفرار خوف الأذية في المال، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله وأوكد.

وسفر الطلب: ينقسم إلى قسمين:

طلب دين، وطلب دنيا.

الطلب الأول: طلب الدين.

يتعدد أنواعه إلى تسعة أقسام:

١ - سفر العبرة: حيث قال الله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم: ٩].

وهو كثير: ويقال: إن ذا القرنين إنما طاف الأرض ليرى عجائبها.

وقيل: لينفذ الحق فيها.

٢ - سفر الحج، وهذا السفر فرض.

٣ - سفر الجهاد، وله أحكامه.

٤ - سفر المعاش: إذا تعذر معاش الرجل في بلده، فيخرج منها لصيد أواحتطاب أو عمل آخر.

٥ - سفر التجارة والكسب الزائد على القوت، حيث يقول الله تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨].

٧ - قصد البقاع: قال رسول الله ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى**».

٨ - قصد الثغور: للرباط وحراسة المسلمين من الأعداء في موانى البحار.

٩ - زيارة الإخوان في الله.

القصد من سفر الدين:

إن السفر قطعة من العذاب ، والمسلم الذى يسافر ويتحمل أعباء السفر يكون مأجورا ، وخاصة السفر فى سبيل التفقه فى الدين وتحصيل الأمور العامة والخاصة لفهم الشريعة الإسلامية وتوضيح ما أباحه الله للمسافر وبيان فضل كل أمر من أمور الدين الحنيف ولنبدأ بفضل العلم النافع .

فضل طلب العلم النافع

١ - يقول الله تعالى فى سورة المجادلة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾ [المجادلة: ١١] .

وقال أيضا عز وجل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ ﴾ [آل عمران: ١٨] .

٢ - وجاء فى حديث رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى الدرداء (رضى الله عنه) قال رسول الله ﷺ : «**العلماء ورثة الأنبياء**» .

٣ - وروى البخارى ومسلم من حديث معاوية (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده**» ، دون قوله: «... **ويلهمه رشده**» هذه الزيادة عند الطبرانى فى الكبير .

٤ - وروى مسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال: «**من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفّس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر ، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليه السكينة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**» .

٥ - وروى أبو داود والترمذى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**من سلك طريقا يبتغى فيه علما ، سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض ، حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد ، كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» .

وفى الأخبار والآثار:

١ - يقول على بن أبى طالب (رضى الله عنه): العلم خير من المال ، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم ، والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق .

٢ - وقال على أيضا: (العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم فى الإسلام ثلمة ، لا يسدها إلا خلف منه) .

وقال على (كرم الله وجهه) نظما:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمو ::: على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ::: والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيًّا به أبدا ::: الناس موتى وأهل العلم أحياء

٤ - وقال ابن عباس (رضى الله عنهما): (خيّر سليمان بن داود (عليهما السلام) بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطى المال والملك معه) .

فضل سفر الحج والجهاد

١ - روى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: سئل النبى ﷺ : (أى العمل أفضل) ، قال: «**إيمان بالله ورسوله**» ، قيل ، ثم ماذا ، قال: «**الجهاد فى سبيل الله**» ، قيل: ثم ماذا ، قال: «**حج مبرور**» .

٢ - وأخرج الترمذى فى سننه بسنده عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) قال: قال

رسول الله ﷺ : «**تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة**» .

٣ - وروى مسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**إن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى على مدرجته (طريقه) ملكا ، فلما أتى عليه ، قال: أين تريد ؟ قال: أريد أخا لى فى هذه القرية ، قال: هل لك عليه من نعمة تربها (تريدها) عليه؟ قال: لا غير أنى أحببته فى الله تعالى ، قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك ، كما أحببته فيه**» .

٤ - وروى ابن حبان فى صحيحه عن ابن عمر (رضى الله عنهما) عن النبى ﷺ قال: «**إن الحاج حين يخرج من بيته ، لم يخط خطوة إلا كتب الله له بها حسنة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا وقفوا بعرفات ، باهى الله بهم ملائكته ، يقول: انظروا إلى عبادى ، أتونى شعثا غبرا ، أشهدكم أنى غفرت ذنوبهم وإن كانت عدد قطر السماء ، ورمل عالج - تراكم الرمال**» .

وإذا رمى الجمار ، لم يدر أحد ما له حتى يتوفاه الله تعالى يوم القيامة ، فإذا قضى آخر طوافه بالبيت ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) .

وقال الله تعالى فى الجهاد فى سبيل الله: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة: ٤١] .

فضل سفر الرباط فى سبيل الله

يقول الله تعالى فى نهاية سورة آل عمران:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

الرباط: هو السهر على حدود الدولة الإسلامية فى الشواطئ والموانى ، لحراسة المسلمين من غارات الأعداء والاعتداء على ممتلكات المسلمين من البحر .

١ - ولقد روى البخارى ومسلم، عن سهل بن سعد (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**رباط فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، وروحة يروحها العبد فى سبيل الله تعالى أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**».

٢ - وروى مسلم، عن سلمان الفارسى (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم وليلة، خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه أجرى عليه عمله الذى كان يعمل، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان**».

٣ - وروى الترمذى وقال: حديث حسن صحيح، عن عثمان بن عفان (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط فى سبيل الله، خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل**».

٤ - وروى مسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق**».

فضل سفر التجارة والكسب

يقول الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

ويقول أيضا عز وجل: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن يغدو أحدكم، فيحتطب على ظهره، فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا، أعطاه أو منعه**».

وعن ابن عمر (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «**التاجر الأمين الصدوق المسلم مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة**»، صحيح الجامع للألبانى (٣٤٥٣).

وعن عبد الرحمن بن شبل (رضى الله عنه) مرفوعا إلى النبى ﷺ قال: «**إن التجار هم**

الفجـــار» ، قـيل: يـا رسـول الله ، أوليس قد أحل الله البيع ، قال: «**بلى ، ولكنهم يحدثون فيكذبون ، ويحلفون فيأثمون**» ، صحيح الجامع للألبانى (٣٦٦) .

وعـن عبيد بن رفاعة (رحمه الله) قال: إنه خرج مع النبى ﷺ إلى المصلى ، فرأى الناس يتـبايعون ، فقـال: «**يا معشر التجار**» فاستجابوا لرسول الله ﷺ ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه ، فقال: «**إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا ، إلا من اتقى الله ، وبر وصدق**» .

وكان عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) يقول:

(لا يقعـد أحـدكم عـن طلب الرزق ، ويقول: اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة) .

وكـان يقـول: (ما من موضع يأتينى الموت فيه ، أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى) .

شروط التجارة:

١- أن يكـون التاجـر عنده رأس المال الكافى لتجارته ، ولا يستدين بالأرباح أو بالربا والعياذ بالله .

٢- أن يكـون التاجـر عالمـا جـيدا بأصول التجارة ، وخبيرا بأحوال السوق ، وأن يعلم معدل الربح فلا يتغالى فيه ويظلم الناس ، وأن يكون تقيا .

٣- فكلمـة تاجر: التاء فيها أن تكون تقيا ، والألف: أن يكون أميناً ، والجيم: أن يكون جريئا ، والراء: أن يكون رحيما .

٤- وأخـرج ابـن عـساكر ، عن أم سلمة ، قالت: لقد خرج أبو بكر الصديق على عهد رسـول الله ﷺ تاجـرا إلى (بـصرى) حتـى بعد أن ولى المسلمين ، وصار خليفتهم ، اندفـع إلى الـسوق للمتاجرة والعمل ، فصده المسلمون عن ذلك ورأوا أن مثله فى مكانـته حـرى بـأن يفـرغ نفـسه لـشؤون أمـته ، فقال: من أين أطعم عيالى ، قالوا: نفرض لك ففرضوا لـه كل يوم شطر شاة) .

٥- ولما هاجر المسلمون مع رسول الله ﷺ، آخى الرسول بين عبد الرحمن بن عوف، وبين سعد بن الربيع، قال سعد لعبد الرحمن: إن مالى شطران، لى شطر ولك شطر، وإن لى زوجتين أطلق إحداهن لتتزوج منها، فقال عبد الرحمن: لا حاجة لى إلى مالك، ولا لأهلك بارك الله لك فيهما، ولكن دلنى على السوق.

وتاجر عبد الرحمن، فأثرى فى الإسلام ثراء ضخما، حتى قدم سبعمائة بعير تحمل القمح والدقيق والطعام، فلما دخلت المدينة اشتراها عبد الرحمن وتصدق بها للمسلمين وفى سبيل الله، لأن التجارة الحلال تنمو وتزدهر.

فضل السفر وآدابه

١- أخرج أحمد والبيهقى والطبرانى فى الأوسط بسند جيد عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**ما من خارج يخرج من بيته إلا ببابه رايتان راية بيد ملك، ورايـة بيد شيطان، فإن خرج لما يحب الله عز وجل، اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك، حتى يرجع إلى بيته، وإن خرج لما يسخط الله (كسرقة أو قتل أو قطع طريق أو تجارة محرمة) اتبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته**».

٢- وعلى التاجر إذا خرج للسفر الحلال أن يوصى بما يحتاج إلى الوصية به، وليشهد على وصيته، ويسترضى والديه وشيوخه، ويتوب إلى الله ويستغفره وليجتهد فى تعلم ما يحتاج إليه فى سفره.

فإن كان غازيا: تعلم ما يحتاج إليه الغازى من أمور القتال، وأمور الغنائم وتعظيم تحريم الهزيمة.

وإن كان حاجا أو معتمرا: تعلم مناسك الحج والعمرة، أو استصحب معه كتابا يوضح له أماكن الحج والدعوات والمباحات والمحرمات.

وإن كان تاجرا: تعلم أمور البيع والشراء وما يصح منه وما يبطل ربحه وأن يبتعد عن الاحتكار والحلف الكذب.

وإن كان متعبدا: تعلم أمور دينه ، ماهرا فى تبليغ تعاليم الدين ، ويبتعد عن كل ما يكذب ، حافظا لآيات الله وأحاديث النبى ﷺ .

وإن كان ممن يصيد: تعلم ما يحل له من الصيد حيواناً أو طائراً ، وما يشترط فى الذبح الحلال ويكون هدفه من الصيد الانتفاع بما صاده .

وإن كان راعيا: تعلم الرفق بالحيوانات ، وأن يهتم بأماكن الرعى وأن يسقيها حين عطشها ، ولا يغفل عنها من الذئاب وما يؤذيها .

وإن كان رسولا من سلطان إلى سلطان أو نحوه ، اهتم بتعلم سلوك المخاطبة وحسن الإجابة إذا سئل ، وما يحل له من الضيافات والهدايا وعدم الغش والنفاق والخداع ، والحذر من مقدمات الغدر .

وإن كان وكيلا أو عاملا على بلد أو مكان ، عليه تعلم أصول الأمانة فى عمله ، والحدود التى تسمح له فى البيع أو الشراء ، ولا يجوز له التصرف فيما وكل إليه إلا باستشارة من له أمر العمل وصاحبه .

٣ - ويستحب أن يكون السفر يوم الخميس ، لقول كعب بن مالك: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يسافر لم يسافر إلا يوم الخميس) .

وأخرج البخارى وأحمد وأبو داود فى سنده أحمد بن لهيعة ، وقوله: (فما كان رسول الله ﷺ يخرج إذا أراد سفرا إلا يوم الخميس) .

وحكمة ذلك: (أن الخميس يوم مبارك ، ترفع فيه أعمال العباد إلى الله تعالى) .

٤ - ويستحب توديع المسافر ، فلقد أخرج أحمد والنسائى والترمذى وحسنه ، من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه): أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ يريد سفرا ، فقال: يا رسول الله ، أوصنى ، قال: «**أوصيك بتقوى الله، والتكبير على كل شرف**» (مكان مرتفع) فلما ولى الرجل ، قال النبى ﷺ : «**اللهم ازو له الأرض ، وهون عليه السفر**» .

٥ - ويستحب أن يودع المسافر من يخلفه ، فلقد أخرج أحمد وابن السنى والطبرانى من

حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**من أراد أن يسافر فليقل لمن يخلفه: أستودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه**».

٦ - ويستحب لمريد السفر أن يصلى ركعتين قبل خروجه.

أذكار السفر

١ - أخرج ابن جرير (رحمه الله) من حديث أنس بن مالك (رضى الله عنه) لم يرد رسول الله ﷺ سفرا قط، إلا قال حين ينهض من جلوسه: «**اللهم لك انتشرت، وإليك توجهت، وبك اعتصمت، اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى، اللهم اكفنى ما أهمنى، وما لا أهتم له، وما أنت أعلم به، اللهم زودنى التقوى، واغفر لى ذنبى، ووجهنى للخير، أينما توجهت**» ثم يخرج.

٢ - أخرج أحمد بسند فيه رجل لم يسم وبقيته ثقات، من حديث عثمان بن عفان (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مسلم يخرج من بيته يريد سفرا أو غيره**»، فقال حين يخرج: «**بسم الله، آمنت بالله، اعتصمت بالله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، إلا رزق ذلك خير المخرج، وصرف عنه شر ذلك المخرج**».

٣ - وأخرج البزار وابن أحمد فى زوائد المسند بسند رجال ثقات من حديث على بن أبى طالب (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد سفرا قال: «**اللهم بك أصول وبك أجول، وبك أسير**».

٤ - وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى بأسانيد صحيحة وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم: من قول على بن ربيعة: رأيت عليا رضى الله عنه أتى بدابة ليركبها، فلما وضع رجله فى الركاب، قال: بسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف: ١٣].

ثم حمد الله ثلاثا، وكبر ثلاثا، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى فاغفر لى، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا أمير المؤمنين،

قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا رسول الله قال: «**يعجب الرب من عبده، إذا قال: رب اغفر لى، ويقول: علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى**».

٥ - أخرج أحمد والطبرانى والبزار بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال: كان النبى ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى سفر قال: «**اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل، اللهم إنى أعوذ بك من الضبنة (ما تحت يدك من مال وعيال) فى السفر، والكآبة فى المنقلب، اللهم اطو لنا الأرض، وهون علينا السفر**».

وإذا أراد الرجوع قال: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون**».

وإذا دخل على أهله قال: «**توبا، توبا، لربنا أوبا، لا يغادر علينا حوبا**»، أى الذنب.

٦ - وأخرج أحمد وأبو داود وابن النجار بسند جيد، والترمذى والحاكم بسند صحيح من قول ابن عمر (رضى الله عنهما) كان رسول الله ﷺ، إذا غزا أو سافر فأدركه الليل، قال: «**يا أرض ربى وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما دب عليك، أعوذ بالله من شر أسد وأسود (ثعبان) وحية وعقرب، ومن شر ساكن البلد (من الجن) ومن شر والد وما ولد**»، الوالد: إبليس، وما ولد: الشياطين.

٧ - وأخرج مسلم وابن خزيمة والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد ومالك من حديث خولة بنت حكيم السلمية أن النبى ﷺ قال: «**من نزل منزلا، ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك**».

٨ - وأخرج البخارى وأحمد والنسائى من قول جابر بن عبد الله (رضى الله عنهما) قال: (كنا نسافر مع النبى ﷺ، فإذا صعدنا كبرنا، وإذا هبطنا سبحنا).

٩ - وأخرج أحمد وأبو داود والطبرانى من قول أسامة والد أبى المليح قال: كنت رديف النبى ﷺ على حمار، فعثر الحمار، فقلت: تعس الشيطان، فقال لى النبى ﷺ: «**لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعظم الشيطان فى نفسه وقال: صرعته بقوتى، فإذا قلت: بسم الله، تصاغرت إليه نفسه حتى يكون أصغر من ذباب**».

الرخص الإسلامية فى السفر

أباح الله للمسافر رخصا إسلامية يتبعها المسافر تخفيفا عليه من عذاب السفر وهذه الرخص هى:

١- المسح على الخفين أو الجورب (الشراب).

٢- التيمم بالتراب عند انعدام الماء.

٣- قصر الصلاة الرباعية.

٤- الجمع بين الصلاتين.

٥- صلاة النفل راكبا.

٦- صلاة النفل ماشيا.

٧- الفطر فى شهر رمضان.

وإليك عزيزى القارئ شرح وتوضيح كل رخصة من خلال أحاديث رسول الله ﷺ ونبدأ بالمسح على الخفين:

الرخصة الأولى: المسح على الخفين

الخفان: هو حذاء من جلد (أو شراب) يلبسه الرجل والمرأة، إذا لبس على طهارة بعد الوضوء، جاز للمسافر أن يمسح على خفيه ثلاثة أيام بلياليهن دون أن ينزعهما، وللشخص المقيم يوم وليلة.

فلقد روى مسلم وأحمد، عن شريح بن هانئ (رضى الله عنه) قال: سألت عائشة (رضى الله عنها) عن المسح على الخفين فقالت: سل عليا فإنه أعلم بهذا منى كان يسافر مع رسول الله ﷺ، فسألته، فقال: قال رسول الله ﷺ: «**للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن وللمقيم يوم وليلة**».

شروط المسح:

١- أن يلبس الخف على وضوء .

٢- أن يكون الخف أو الجورب (الشراب) طاهرا ، ولا يصح المسح على نجس أو متنجس .

٣- أن يكون ساترا للقدمين ، ولا بأس إذا كان به خروق .

٤- أن يكون قويا يمكن تتابع المشى عليه .

ويكون المسح على ظاهر الخفين ، فلا يصح المسح على أسفله ولا على جوانبه .

الرخصة الثانية: التيمم بالتراب

التيمم: طهارة ترابية ، تسد مسد الطهارة المائية (وضوءا كانت أو غسلا) عند فقد الماء ، أو عدم القدرة على استعماله .

وهو عبارة عن ضربتين بالكفين على التراب الصعيد الطاهر ، ضربة للوجه ، وضربة لليدين إلى الرسغين ، يقول الله تعالى فى سورة النساء:

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٤٣] .

وسبب مشروعيته ، ما رواه مسلم وأخرجه مالك من حديث عائشة (رضى الله عنها) قالت: (خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء انقطع عقدى ، فأقام النبى ﷺ على التماسه وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فأتى الناس إلى أبى بكر فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة .

فجاء أبو بكر ، والنبى ﷺ واضعاً رأسه على فخذى ، قد نام ، فعاتبنى وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يطعن بيده فى خاصرتي ، فما يمنعنى من التحرك إلا مكان النبى ﷺ على فخذى ، فقام حتى أصبح على غير ماء ، فأنزل الله آية التيمم .

فقال أسيد بن حضير: ما هى أول بركتكم يا آل أبى بكر ، قالت: فبعثنا البعير الذى

كنت عليه ، فوجدنا العقد تحته) .

الأسباب المبيحة للتيمم:

١ - إذا لم يجد الماء ، أو وجد ما لا يكفيه للطهارة ، فلقد روى البخارى ومسلم من حديث عمران بن حصين (رضى الله عنه) قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فصلى بالناس ، فإذا هو برجل معتزل ، قال: «**ما منعك أن تصلى**» ، قال: أصابتنى جنابة ، ولا ماء ، قال: «**عليك بالصعيد فإنه يكفيك**» .

وروى أصحاب السنن ، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الصعيد طهور ، لمن لم يجد الماء عشر سنين**» ، ولكن يجب عليه قبل أن يتيمم أن يطلب الماء من رفقته ، أو من مكان قريب ، فإذا تيقن عدمه أو بعده عنه فإنه يتيمم .

٢ - إذا كان به جراحة أو مرض وخاف من استعمال الماء ، أو تأخر الشفاء ، سواء عرف ذلك بالتجربة ، أو بإخبار الثقة من الأطباء .

فلقد روى أبو داود ، وابن ماجه ، والدارقطنى وصححه ابن السكن من حديث جابر (رضى الله عنه) قال:

خرجنا فى سفر ، فأصاب رجلا منا حجر ، فشجه فى رأسه ثم احتلم ، فسأل أصحابه ، هل تجدون لى رخصة فى التيمم ، فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه بذلك ، فقال: «**قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العى (الجهل) السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليه ، ويغسل سائر جسده**» .

٣ - إذا كان الماء شديد البرودة ، وغلب على ظنه حصول ضرر باستعماله بشرط أن يعجز عن تسخينه ولو بالأجر ، أو لا يتيسر له دخول الحمام .

فلقد روى أحمد وأبو داود والحاكم والدارقطنى وابن حبان وعلقه البخارى وفى هذا إقرار ، والإقرار حجة ، لأنه ﷺ لا يقر على باطل ، من حديث عمرو بن العاص (رضى الله عنه) أنه لما بعث فى غزوة ذات السلاسل ، قال: احتلمت فى ليلة شديدة البرودة ، فأشفقت

إن اغتسلت أن أهلك ، فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح .

فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك لـه فقال: «**يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟**» ، فقلت: ذكرت قول الله عز وجل:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩] .

فتيممت ثم صليت ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا .

٤ - إذا كـان المـاء قـريبا مـنه ، إلا أنـه يخـاف علـى نفسه أو عرضه أو ماله ، أو فوات الـرفقة ، أو حـال بيـنه وبـين المـاء عدو يخشى منه ، سواء كان العدو آدميا أو غيره ، أو كان مسجونا ، أو عجز عن استخراج الماء ، لفقد آلة الماء كحبل أو دلو ، لأن وجود الماء فى هذه الأحوال كعدمه ، وكذلك من خاف أن اغتسل أن يرمى بما هو برىء منه ، ويتضرر به ، مثل رجـل بـات عـند رجـل صـديقه فاحتلم ، فلا يطلب الاستحمام ، لأنه بذلك يشك الرجل فى أهله .

٥ - إذا احـتاج إلى المـال حالا أو مآلا لشربه أو شرب غيره ، ولو كان كلبا غير عقور ، أو احـتاج لـه لعجـن أو طـبخ ، أو إزالـة نجاسـة غـير معفو عنها فإنه يتيمم ويحفظ ما معه من الماء .

قـال الإمـام أحمـد (رضى الله عنه) أنه قال: (فى الرجل يكون فى السفر فتصيبه الجنابة ومعه قليل من الماء ، يخاف أن يعطش: يتيمم ولا يغتسل) .

وقال ابن تيمية (رحمه الله):من كان حاقنا عادما للماء ، فالأفضل أن يصلى بالتيمم غير حاقن ، من أن يحفظ وضوءه ويصلى حاقنا .

٦ - إذا كـان قـادرا علـى اسـتعمال المـاء ، لكـنه خـشى خـروج الوقت باستعماله فى الوضوء أو الغسل ، فإنه يتيمم ويصلى ، ولا إعادة عليه .

ويجـوز التـيمم بـالتراب الطاهـر وكـل ما فى جنس الأرض كالرمل والحجر والجص ، وأجمع العلماء أن الصعيد الطيب هو كل ما على وجه الأرض .

ويباح للمتيمم الصلاة ومس المصحف، ويصلى بالتيمم الواحد ما شاء من الفرائض والنوافل، فحكمه كحكم الوضوء سواء بسواء.

ومبطلات التيمم ما يبطل به الوضوء، ويبطل بوجود الماء فى الوقت، فمن وجد الماء قبل أن يصلى بالتيمم وجب عليه الوضوء بالماء.

وإن صلى بالتيمم ثم وجد الماء فى الوقت، ليس عليه إعادة، لقول الرسول ﷺ لمن صلى بالتيمم فى الوقت: «**أصبت السنة وأجزأتك صلاتك**» أخرجه النسائى وأبو داود والدارمى والحاكم.

الرخصة الثالثة: قصر الصلاة الرباعية

يقول الله تعالى فى سورة النساء:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [النساء: ١٠١].

يجوز للمسافر أن يصلى الظهر والعصر والعشاء ركعتين، أما صلاة الصبح فلا تقبل القصر لأنها قصيرة بطبيعتها، وكذلك صلاة المغرب لا تقبل القصر لأنها وتر النهار.

تقييد قصر الصلاة بالخوف غير معمول به:

فلقد روى البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ومالك من حديث يعلى بن أمية (رضى الله عنه) قالت: قلت لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه): أرأيت إقصار الناس الصلاة، وإنما قال الله عز وجل: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النساء: ١٠١] فقد ذهب ذلك اليوم، فقال عمر: عجبت مما عجبت منه، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته**».

وروى أحمد والبيهقى وابن حبان وابن خزيمة ورجاله ثقات عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: (قد فرضت الصلاة ركعتين ركعتين بمكة، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة زاد مع كل ركعتين ركعتين، إلا فى المغرب، فإنها وتر النهار، وصلاة الفجر لطول قراءتها،

وكان إذا سافر صلى الصلاة الأولى أى التى فرضت بمكة) .

ملحوظة:

فى السنة الرابعة من الهجرة: فرضت صلاة القصر فى الظهر والعصر والعشاء للمسافر ، ويكره إتمام الصلاة الرباعية ، ويكره أن يصلى المسافر خلف الشخص المقيم لأنه بذلك تفوته رخصة القصر ، وإذا صلى المسافر إماما بمقيم ، فيصلى ركعتين ويسلم .

ويقول للناس الذين صلوا خلفه: (أتموا صلاتكم فإنى على سفر) .

فلقد ثبت أن الرسول ﷺ صلى إماما بأهل مكة بعد الهجرة صلاة رباعية ، فسلم على رأس ركعتين ، ثم التفت إلى القوم فقال: «**أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر**» .

شروط صحة القصر:

لكى نصلى صلاة القصر فى الظهر والعصر والعشاء يجب علينا اتباع الشروط الآتية كما جاء فى الفقه على المذاهب الأربعة بتصرف وإيجاز ، وهى:

١- مدة القصر أى المسافة وهى مطلقة غير محددة ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ [النساء: ١٠١] ، والجناح: الإثم: ﴿ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [النساء: ١٠١] سواء طالت المسافة أو قصرت ، ولم يرد ما يرد من السنة ما يقيد هذا الإطلاق ، ولقد نقل ابن المنذر وغيره فى هذه المسألة أكثر من عشرين قولا ، نذكر هنا أصح ما ورد فى ذلك:

أ- فرسخ أى ثلاثة أميال ، والميل ١٧٤٨ متر × ٣ = ٥٢٤٤ متر ، أى ٥ كيلو متر ، فلقد روى سعيد بن منصور ، وذكره الحافظ فى التلخيص وأقره بسكوته عنه من حديث أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) قال: (كان رسول الله ﷺ إذا سافر فرسخا يقصر الصلاة) .

وأقل ما ورد فى مسافة القصر ميل واحد ، رواه ابن أبى شيبة بإسناد صحيح عن ابن عمر .

ب - مسيرة مرحلتين أو ثلاث من اشتراط السفر الطويل مما ذهب إليه الفقهاء، فقد كفانا مؤونة الرد عليهم الإمام أبو القاسم الخرقى، قال فى المغنى: قال المصنف: (لا أرى لما صار إليه الأئمة حجة، لأن أقوال الصحابة متعارضة مختلفة، ولا حجة فيها مع الاختلاف، وقد روى عن ابن عمر وابن عباس خلاف ما احتج به أصحابنا، ثم لو لم يوجد ذلك، لم يكن فى قولهم حجة مع قول النبى ﷺ وفعله.

وإذا لم تثبت امتنع المصير إلى التقدير الذى ذكروه لوجهين:

أحدهما: أنه مخالف لسنة الرسول ﷺ.

وثانيهما: ظاهر القرآن الذى لم يحدد الله فيه مسافة السفر.

جـ - وقال البعض: إن مسافة القصر مسيرة ثلاثة أيام، واحتجوا بقول النبى ﷺ: «**يمسح المسافر ثلاثة أيام**»، وهذا الحديث جاء لبيان مدة المسح على الخفين، فلا يحتج به هاهنا فى قصر الصلاة، وقد سماه النبى ﷺ سفرا فقال:

«**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذى محرم**».

والتقدير بابه التوقيف: فلا يجوز المصير إليه برأى مجرد، وخاصة ليس له أصل يرد إليه، ولا نظير يقاس عليه، والحجة مع من أباح القصر لكل مسافر إلا أن ينعقد الإجماع على خلافه، ويستوى فى ذلك السفر فى الطائرة أو القاطرة.

٢- والثانى من شروط قصر الصلاة: أن ينوى الشخص السفر فيحل له قصر الصلاة، فلو خرج إنسان هائما على وجهه، لا يدرى أين يتوجه فإنه لا يقصر ولو طاف الدنيا كلها.

٣- أن يكون السفر مباحا، فلو كان السفر حراما كأن يسافر لسرقة مال أو قطع الطريق فلا يقصر، وقال البعض: يجوز قصر الصلاة فى السفر المكروه.

٤- مجاوزة حد الإقامة، من الجانب الذى خرج منه، فلا يجوز للمسافر أن يقصر الصلاة قبل أن يفارق بيوت القرية أو المصر (المدينة).

وأجاز البعض: أن يجوز للمسافر الذى نوى السفر أن يصلى قصرا ولو كان يرى البيوت .

فلقد أخرج الحاكم وذكره البخارى معلقا من حديث على بن ربيعة (رضى الله عنه) قال: (خرجنا مع على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقصرنا الصلاة ونحن نرى البيوت) .

مدة قصر الصلاة:

المسافر يقصر الصلاة ما دام مسافرا ، فإن أقام لحاجة ينتظر قضاءها قصر الصلاة كذلك ، لأنه يعتبر مسافرا وإن أقام سنين .

فإن نوى الإقامة مدة معينة:

والذى اختاره ابن القيم: أن الإقامة لا تخرج عن حكم السفر ، سواء طالت أم قصرت ، ما لم يستوطن المكان الذى أقام فيه .

وللعلماء فى ذلك آراء كثيرة لخصها ابن القيم فقال:

عشرون يوما ، قال ابن القيم: (أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة ، ولم يقل للأمة: لا يقصر الرجل الصلاة ، إذا أقام أكثر من ذلك ، ولكن اتفق إقامته هذه المدة) .

وهذه الإقامة فى حال السفر ، لا تخرج عن حكم السفر ، سواء طالت أم قصرت إذا كان غير مستوطن ، ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع .

تسعة عشر يوما: ففى صحيح البخارى ، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: (أقام النبى ﷺ فى بعض أسفاره تسعة عشر ، يصلى ركعتين ، فنحن إذا أقمنا تسعة عشر نصلى ركعتين ، وإن زدنا على ذلك أتممنا) .

وظاهر كلام أحمد: أن ابن عباس أراد مدة مقامه بمكة زمن الفتح .

ثمانية عشر يوما: وقال ابن عباس (رضى الله عنهما): (أقام رسول الله ﷺ بمكة ثمانية عشر يوما من الفتح ، لأنه أراد حنينا ولم يكن ثم - أى هناك - أجمع المقام) .

وهذه إقامته التى رواها ابن عباس ، وقال غيره: بل أراد ابن عباس مقامه بتبوك حيث

روى أحمد فى مسنده، عن جابر بن عبد الله قال: أقام النبى ﷺ بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة.

أربعون ليلة: وقال المسور بن مخرمة (رضى الله عنه): (أقمنا مع سعد ببعض قرى الشام، أربعين ليلة يقصرها سعد، ونتمها).

ستة أشهر: وقال نافع (رضى الله عنه): (أقام ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يصلى ركعتين، وقد حال الثلج بينه وبين الدخول).

سنتان: وقال حفص بن عبيد الله (رضى الله عنه): (أقام أنس بن مالك بالشام سنتين يصلى صلاة المسافر).

سبعة أشهر: وقال أنس بن مالك (رضى الله عنه): (أقام أصحاب النبى ﷺ برام هرمز سبعة أشهر يقصرون الصلاة)

سنتان: وقال الحسن (رضى الله عنه): (أقمت مع عبد الرحمن بن سمرة بكابل سنتين يقصر الصلاة ولا يجمع).

أكثر من سنة وسنتين: وقال إبراهيم (رضى الله عنه): (كانوا يقيمون بالرى السنة وأكثر من ذلك، وسجستان السنتين).

هدى النبى ﷺ :

فهذا هدى النبى ﷺ وأصحابه كما ترى، وهو الصواب.

أما مذهب الناس، فقال الإمام أحمد: إذا نوى إقامة أربعة أيام، أتم وإن نوى دونها قصر، وجعل هذه الآثار على أن الرسول ﷺ وأصحابه لم يجمعوا (أى يقصدوا) الإقامة البتة، بل كانوا يقولون: اليوم نخرج غدا نخرج، وفى هذا نظر لا يخفى، فإن رسول الله ﷺ فتح مكة وهى ما هى، وأقام فيها يؤسس قواعد الإسلام، ويهدم قواعد الشرك، ويمهد أمر ما حولها من العرب.

وهناك بعض الآراء لبعض الأئمة والمذاهب والفقهاء فى موضع قصر الصلاة، وكل

من رسول الله ملتمس ، فالتمس أنت أيضا رحمك الله .

وصلاة التطوع فى السفر: أجازها البعض ، وقالوا: حسب حالة الخوف والأمان .

الرخصة الرابعة: الجمع بين الصلاتين

يجوز للمصلى أن يجمع بين الظهر والعصر: جمع تقديم ، أى يصلى الظهر والعصر فى زمن صلاة الظهر ، وجمع تأخير: أى يصلى الظهر والعصر فى زمن صلاة العصر ، وكذلك الجمع بين المغرب والعشاء ، جمع تقديم أو جمع تأخير ، فى الحالات الآتية:

١- الجمع بعرفة والمزدلفة .

٢- الجمع فى السفر .

٣- الجمع فى المطر .

٤- الجمع بسبب المرض أو العذر .

٥- الجمع للحاجة .

وإليك عزيزى القارئ شرح كل حالة فى ضوء الكتاب وسنة الرسول ﷺ .

١ - الجمع بعرفة والمزدلفة:

اتفق العلماء على أن الجمع بين الظهر والعصر ، جمع تقديم فى وقت الظهر بعرفة ، والجمع بين المغرب والعشاء جمع تأخير فى وقت العشاء بالمزدلفة سنة لفعل الرسول ﷺ .

٢ - الجمع فى السفر:

الجمع بين الصلاتين فى السفر ، فى وقت إحداهما جائز فى قول أكثر أهل العلم ، لا فرق بين كونه نازلا أو سائرا .

فلقد روى أبو داود والترمذى وقال: هذا حديث حسن ، عن معاذ بن جبل (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ كان فى غزوة تبوك ، إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر ، وإذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر حتى ينزل العصر ، وفى المغرب مثل

ذلك ، إن غابت الشمس قبل أن يرتحل ، جمع بين المغرب والعشاء ، وإن ارتحل قبل أن تغيب الشمس أخّر المغرب حتى ينزل للعشاء ، ثم نزل فجمع بينهما .

روى أحمد ، عن كريب عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال: (ألا أخبركم عن صلاة رسول الله ﷺ فى السفر ، قلنا: بلى ، قال: كان إذا زاغت له الشمس فى منزله ، جمع بين الظهر والعصر قبل أن يركب ، وإذا لم تزغ له فى منزله سار حتى إذا حانت صلاة العصر ، نزل فجمع بين الظهر والعصر ، وإذا حانت له المغرب فى منزله جمع بينها وبين العشاء ، وإذا لم تحن فى منزله ركب حتى إذا كانت العشاء نزل فجمع بينهما) .

ولا تشترط النية فى الجمع والقصر ، قال ابن تيمية: وهو قول الجمهور من العلماء وقال: والنبى ﷺ لما كان يصلى بأصحابه جمعا وقصرا ، لم يكن يأمر أحدا منهم بنية الجمع والقصر ، بل خرج من المدينة إلى مكة يصلى ركعتين من غير جمع ، ثم صلى بهم الظهر بعرفة ، ولم يعلمهم أنه يريد أن يصلى العصر بعدها ، ثم صلى بهم العصر ، ولم يكونوا نووا الجمع ، وهذا جمع تقديم) .

٣ - الجمع فى المطر:

روى البخارى (رحمه الله) أن النبى ﷺ جمع بين المغرب والعشاء فى ليلة مطيرة .

وروى الأثرم فى سننه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن (رضى الله عنه) أنه قال: (من السنة إذا كان يوم مطير ، أن يجمع بين المغرب والعشاء) .

اختلف الأئمة والفقهاء فى تحديد جواز الجمع فى المغرب والعشاء ليلا والظهر والعصر فى اليوم المطير ، ولم يتحدوا على رأى واحد معين .

ونقول وبالله التوفيق: إذا عم المطر ليلا أو نهارا وانتشر الوحل وشق على الإنسان السير فيه ، وظن حدوث ضرر ، فالإنسان يجمع ، وإن خف المطر سواء كان ليلا أو نهارا فلا يجمع ، لأن رواية البخارى السابقة مطلقة فى ليلة مطيرة ، والله أعلم .

٤ - الجمع بسبب المرض أو العذر:

ذهب الإمام أحمد والقاضي حسين، والخطابي، والمتولي من الشافعية: إلى جواز الجمع بين الصلاتين تقديما وتأخيرا بعذر المرض، لأن المشقة فيه أشد من المطر.

قال النووي: وهو قوي في الدليل، وفي المعنى: والمرض المبيح للجمع: هو ما يلحقه به بتأدية كل صلاة في وقتها مشقة وضعف.

وتوسع الحنابلة: فأجازوا الجمع تقديما وتأخيرا لأصحاب الأعذار، وللخائف وأجازوه للمرضع التي يشق عليها غسل الثوب في وقت كل صلاة، وللمستحاضة ولمن به سلس بول، وللعاجز عن الطهارة، ولمن خاف على نفسه أو ماله أو عرضه، ولمن خاف ضررا يلحقه في معيشته بترك الجمع.

قال ابن تيمية (رحمه الله): وأوسع المذاهب في الجمع: مذهب أحمد بن حنبل فإنه جوز الجمع إذا كان شغل، كما روى النسائي ذلك مرفوعا إلى النبي ﷺ إلى أن قال: يجوز الجمع أيضا للطباخ والخباز ونحوهما ممن يخشى فساد ماله.

٥ - الجمع للحاجة:

روى مسلم عن ابن عباس (رضي الله عنهما): قال: (جمع رسول الله ﷺ بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، بالمدينة في غير خوف ولا مطر، قيل لابن عباس: ماذا أراد بذلك، قال: أراد ألا يحرج أمته).

وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن النبي ﷺ صلى بالمدينة سبعا وثمانيا: الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وعند مسلم عن عبد الله بن شقيق قال: خطبنا ابن عباس يوما بعد العصر، حتى غربت الشمس وبدت النجوم، وجعل الناس يقولون: الصلاة الصلاة، قال: فجاءه رجل من بني تيم، لم يفتر ولا ينثني: الصلاة الصلاة، فقال ابن عباس: أتعلمني السنة، لا أم لك؟ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قال عبد الله ابن شقيق: فحاك في صدري من ذلك، فأتيت أبا هريرة فسألته، فصدق مقالته).

الرخصة الخامسة: التنفل راكبا

روى البخارى ومسلم أحمد: (كان رسول الله ﷺ : يصلى على راحلته أينما توجهت به دابته ، وأوتر رسول الله ﷺ على الراحلة) (غير أنه لا يصلى عليها المكتوبة) .

وليس على المتنفل الراكب ركوع ولا سجود ، وإنما يكون بالإيماء ، وينبغى على الراكب أن يكون سجوده أخفض من ركوعه ، ولا يلزمه الانحناء إلى حد يتعرض به لخطر بسبب الراحلة .

أما استقبال القبلة: فلا يجب لا فى ابتداء الصلاة ولا فى دوامها ولكن صوب الطريق بدل القبلة ، فليكن فى جميع صلاته ، إما مستقبلا للقبلة ، أو متوجها فى صوب الطريق ، لتكون له جهة يثبت فيها .

فلو حرف دابته عن الطريق قصدا بطلت صلاته ، إلا إذا حرفها إلى القبلة ، ولو حرفها ناسيا ، لم تبطل صلاته ، وليس عليه سجود سهو .

وقد ثبت أن النبى ﷺ كان يصلى على راحلته وهو مقبل من مكة إلى المدينة ، حيث ما توجهت به راحلته ، وفيه نزلت الآية:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥] .

الرخصة السادسة: التنفل ماشيا

التنفل للماشى جائز فى السفر ، ويومئ بالركوع والسجود ، ولا يقعد للتشهد ، لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة ، وعلى الماشى الذى يريد التنفل أن يستقبل القبلة فى بدء الصلاة بخلاف الراكب ، ولا ينبغى أن يمشى فى نجاسة رطبة عمدا ، فإن فعل بطلت صلاته ، بخلاف لو وطئت الدابة نجاسة فى طريقها فلا بأس .

فإن مشى فى نجاسة رطبة هاربا من عدو أو سيل أو سبع فلا بأس وصلاته النافلة صحيحة وللمسافر أن يصلى الفريضة راكبا أو ماشيا .

الرخصة السابعة: الفطر فى رمضان

يقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وروى مسلم عن حمزة الأسلمى (رضى الله عنه) قال: يا رسول الله، أجد منى قوة على الصوم فى السفر، فهل علىّ جناح، فقال: «**هى رخصة من الله تعالى فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه**».

وروى مسلم وأحمد وأبو داود، عن أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) قال: (سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام، قال: فنزلنا منزلا فقال رسول الله ﷺ: «**إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم**» فكانت رخصة، فمنا من صام، ومنا من أفطر.

ثم نزلنا منزلا آخر، فقال: «**إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم، فأفطروا**» فكانت عزمة، فأفطرنا، ثم رأيتنا نصوم بعد ذلك مع رسول الله ﷺ فى السفر).

وقال عمر بن عبد العزيز (رحمه الله): أفضلهما أيسرهما، فمن يسهل عليه حينئذ ويشق عليه قضاؤه بعد ذلك فالصوم فى حقه أفضل.

وروى مسلم والنسائى والترمذى وصححه، عن جابر (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح، فصام حتى بلغ (كراع الغميم) مكان وصام الناس معه، فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإن الناس ينظرون فيما فعلت، فدعا بقدح من ماء بعد العصر، فشرب والناس ينظرون إليه فأفطر بعضهم، وصام بعضهم، فبلغه أن أناسا صاموا، فقال: «**أولئك العصاة**».

والسفر المبيح للفطر: هو السفر الذى تقصر الصلاة بسببه.

آداب الرجوع من السفر

يستحب لمن قدم من السفر: أن يبدأ بالمسجد، فيصلى فيه ركعتى القدوم، وأن يجلس مع من يقصد التسليم عليه فى مكان بارز سهل على زائريه وأن لا يأتى أهله بغتة.

فلقد أخرج البخارى ومسلم عن جابر بن عبد الله (رضى الله عنه) قال: (كنت مع

النبى ﷺ فى سفر ، فلما قدمنا المدينة قال: «**ادخل المسجد فصلّ ركعتين**» .

وأخرج البخارى ومسلم وأحمد عن كعب بن مالك (رضى الله عنه) قال: كان النبى ﷺ لا يقدم من سفر إلا نهارا فى الضحى ، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم جلس فيه ، فيأتيه الناس فيسلمون عليه .

وأخرج البخارى وأبو داود ومسلم والترمذى والنسائى عن جابر بن عبد الله (رضى الله عنه) قال له: إذا دخلت ليلا ، فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة ، وإذا دخلت فعليك الكيس الكيس) .

المغيبة: التى غاب زوجها .

الشعثة: من تلبد شعرها .

الكيس: الجماع .

وأخرج ابن السنى من حديث ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: كان رسول الله ﷺ إذا رجع من سفره ، فدخل على أهله قال: «**توبا ، توبا لربنا أوبا ، لا يغادر حوبا**» .

وأخرج البزار وأبو يعلى مثله بلفظ: «**فإذا دخل على أهله قال: أوبا أوبا لربنا توبا لا يغادر علينا حوبا**» الحوب: الإثم .

وأخرج ابن السنى عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: كان رسول الله ﷺ فى غزوة فلما دخل استقبلته فأخذته بيده ، فقلت: الحمد لله الذى نصرك وأعزك وأكرمك .

* * *